

ابتهال سالم

نوافذ زرقاء

رواية



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٠

كتابات جديدة



الفصل الأول

ها أنت تجلس أمام البحر وحيداً، تتقاذفك أيادى الريح السوداء يرميك برد طوبة بحجر، فترفع رأسك مفتشاً عن القمر المختبيء بين الغيوم والطيور المهاجرة، تلك الطيور التى كنت ترقبها وتتابعها حتى تجتاز الأفق، يهيأ إليك أن البحر قد ابتلعها، إلى أن تفاجأ بها عائدة بعد ذوبان الجليد.

تدفس وجهك بين ركبتيك وصفير الريح فى قلبك يسافر - بك - حيث مكامن الألم والفرح.

كانت النوافذ الزرقاء داخل الغرفة المعقمة تجعل الكائنات البشرية أشباحاً متحركة تحت المصباح الخافت المهزوز.

أزاحت الممرضة رداءك حتى منتصف ظهرك، فشعرك صاج السرير البارد.

وضعت بين أسنانك منشفة قطنية صغيرة.

الضوء الأزرق المسلط فوقك يأتيك من المصباح الوحيد فى الحجرة، رفعت الممرضة ساقيك، فتحتهما بزاوية منفرجة، لفت على ذراعك شريطاً أسود ثعبانى الشكل، نفر الوريد، دعكته بقطنة مبللة، غرزت فيه سن الابرة الذى يعلق بذيلها خرطوم شفاف يتصل عند نهايته بزجاجة اسطوانية مقلوبة، مثبتة على حامل معدنى، داخل الزجاجة محلول يقطر فى الخرطوم الرفيع قطرة، قطرة كعقارب الساعة المنتظمة أو كحبات ماء متقاطرة على بلاط ثلجى.

رائحة القطن المعقم تعبيء المكان الضيق، النوافذ مطلية باللون الأزرق الداكن.

الفئران الوليدة تخرج من جحرها الصغير تقضم لبابات الخبز، تدور بها قليلاً لتعود إلى مخبئها حين يصلها ذبذبات ضحكك، يعاودك الصمت البارد والليل الرابض خلف النافذة الحديدية.

تحشر بطنك العالية بين حافة المنضدة الخشبية المتآكلة والحائط الجيرى وأنت تعدل من وضعها حتى تكون بمحاذاة السرير السفرى الصاج ذى الملة الهابطة.

عاودت الفئران خربشتها فى الوقت الذى كنت تراقب «برصاً» يتسلل بين فجوات النافذة.

تعرف دبة قدمه، تميزها بين آلاف الأحياء، أسرعتَ، يسبقكَ حنينكَ.

ألفيته أمامك، وجهاً شاحباً يخرج من رأس أفرول ميرى مترب، أطلت عيناه بين عظمتى وجنتيه البارزتين، نفس العينين النافذتين ذات الرموش المدببة والنظرة التى مست القلب فلم يهدأ.

كنتَ أقصر كثيراً من قامته ودوماً حين تلتقيان يرفعك فى الهواء عالياً، تتراقص قدماك فرحاً وتملأ ضحكتك الفضاء وتغيبان فى قبلة ساخنة، ينتهى بها المطاف على السرير الضيق.

هذه المرة، مرق جانباً من الباب الموارب، عيناه الباهتتان لا تقدران على حمل قلبه الحزين.

- محتاج كباية شاى.

فرد جسده على الفراش

- مفيش وقت، قدامى ساعة بالكتير.

دفعتَ مكبس الوابور حتى ازرق اللهب، أخذتَ علبة الشاى من فوق الحامل الخشبى المعلق فى المدخل الذى يحتوى المطبخ والحمام معاً ومنضدة خشبية عليها الوابور وبعض أدوات المطبخ البسيطة وفوق المنضدة قاعدة خشبية معلق عليها أكواب متفرقة وبعض اللفافات.

انتشرت رائحة الكيروسين، فتحت النافذة ذات الأسلاك الحديدية المطلة على المنور، ثم وقفتَ بمحاذاة السرير، فى يدك كوب الشاى الساخن وفى عقلك تدور الأسئلة المعلقة.

أسند ظهره على الحائط، تناول كوب الشاى منك، وضعه على المنضدة قرب السرير.

ربت بيده على الفراش.

- تعال، اقعد جنبى يا بهلول.

لمعت عيناكَ، بانت الغمازتان الضاحكتان على الوجنتين، تشابكت أصابع يديه خلف رأسه آخذاً نفساً طويلاً.

أرحتَ كعادتك رأسك على صدره، ملاذك حين تلك - بك - الشدائد وضع كفه الحانية على بطنكِ، انتظر برهة، ثم أطلق ضحكة صبيانية: بيتحرك ويدبدب.

همستَ:

- الشاى برد.

فك اشتباك أصابعه، وضع راحته على شعرك الفاحم النائم فى حضن أفروله

أمسك الكوب، تناول رشفة، أخرج بيده الأخرى من جيب الأفرول العلوى سيجارة فرط ومشط كبريت.

- يظهر اننا داخلين على حرب.

سحبت رأسك سريعاً من بين أحضانه، تناولت منه مشط الكبريت أشعلت له السيجارة.

دارت عيناك فى تقاسيم وجهه الحادة.

- حرب!!

أخذ نفساً طويلاً من السيجارة نافخاً دخانها فى وجهك.

- رحلونا من الوحدة على الجبهة.

تجمع الماء المالح فى ركن العين.

ابتسم محاولاً التخفيف عنكَ، رغم حركة العينين غير المستقرتين. أنهى السيجارة، رشف الباقى من الشاى دفعة واحدة.

أجهز لك لقمة.

اعتدل فى جلسته، ضم أزرار أفروله، نهض، صاح متجهاً إلى الباب وإيقاع حذائه الميرى يبعث الرجفة فى الحجرة.

- مفيش وقت

رائحة المخدر تعبق المكان، ميزتَ البالطو الأبيض للطبيب، وصوت أمك المشحون ونبرات أخيك.

صاح الطبيب: - جسمك ضعيف، مفيش طلق.

نهنهت أمك.

صرخ أخوكَ:

- اسكتى، مش وقته.

قاطعهما الطبيب: - جوزها موجود؟

أسرع الأخ بالرد:

- على الجبهة.

ثبت الطبيب نظارته متفحصاً البطن المنتفخة.

- حعمل اللى فى وسعى والباقى على الله.

صمت قليلاً، متنقلاً ببصره بين أمك وأخيك.

ـ احتمال العملية وارد، عاوز مسئولية كتابية.

توقفت الأم عن النهنهة، حملقت بعينيها فى ابنها البكر.

رد أخوكَ، ناظراً لك ولأمك بالتناوب:

ـ ينفع حد منا؟

شاور الطبيب للممرضة، فأسرعت خلفه وهو يصيح:

ـ ينفع، أى شيء ينفع فى الظروف دى.

كنت تتابع بعينيك الحوار الدائر، تقرأه فى عيونهم ووجوههم المطفأة يا بهلول تحدث نفسك:

«تُرى ماذا سيكون مصيرك يا ذا القادم إلى الدنيا الصغيرة/ الكبيرة، هو يريدها سمراء طويلة وأنت تريده صبياً بقامة النخيل وعيون البحر.»

ـ أنت عارف أبوها وعيلتها مين؟ صحيح انك خريج جامعة.. لكن...

هكذا تحدث أخوك الأكبر، أنفه فى السقف وشفتاه ممطوطتان، كنتَ تتلصص خلف الباب الموارب، تلمح «أحمد» واقفاً يرتدى قميصاً مخططاً وبنطلون چينز، كان أبوك خارج المنزل وقتذاك، وأمك منشغلة فى المطبخ.

حضر «أحمد» دون ميعاد، هكذا هو، قرر أن يحضر، فحضر، لم يقل غير كلمات قليلة:

ـ أنا جاى أحدد ميعاد، اقدم فيه الدبل وابلغ اهلى، مجرد خطوبة لحد ما تخلص جامعة وربنا يسهل.

توالت اللكمات على وجهك وجسدك حتى أصابك الورم لمجرد أنك أحببت، فكرت أن تحب يا بهلول.

كانت الأم والخالة، ترقبان الذبيحة وتتبادلان التعليق:

- اكسر للبنت ضلع، يطلع لها أربعة وعشرين.

تضغط الممرضة على بطنك العارية:

- احذقى، الطلق يحضر

وتحاول أن تحذق وتعض الفوطة المحشوة فى فمك، تصرخ دون جدوى.

بلل الطبيب يديه فى ماء مطهر داخل صحن كبير، وضعهما فى قفازين بلاستيك، تضخمت أصابعه، أخذت أشكالاً هلامية تشبه كائنات ما قبل التاريخ.

انحشرت يده داخل رحمك، فعضضت الفوطة متألماً.

أصوات القذائف ترج زجاج النوافذ، تؤرجح المصباح والسرير، اهتز صحن الماء المعقم، تخبطت الأدوات الطبية فى بعضها.

انزوى أخوكَ وفى أعقابه أمك فى ركن الحجرة.

انفجر الكيس المائى، سقطت الفوطة من فمك وسائل ساخن لزج اندفع بين فخذيك.

صرخ الطبيب:

- لابد من عملية.

اقشعر بدنكَ ورحت فى غيبوبة الخدر والألم يا «بهلول» وصوت الطبيب يعلو فى مواجهة الممرضة:

- علبة ميثرچين بسرعة.

دارت حول نفسها:

- مفيش يا دكتور، المستشفيات العسكرية سحبت معظم الأدوية.

- اتصرفى، إتصلوا بالنجدة، عاوزين حقنة ميثرچين من تحت الأرض، النزيف لازم يقف.

البرودة والليل والغارات دبابيس تخز صغيرك المفزوع المختبىء فى ركن ما داخل بطنك، يلتصق عرقك بالصاج البارد ورائحة الغرفة المعقمة، تشعر بالسائل اللزج والسخونة المبللة تحتك، تتشوق أن تكون كما ولدتك أمك ترقص على إيقاع المطر وتغنى للريح.

العتمة تتزايد

الأزمنة تتراقص فى دماغك، الحجرة المعقمة تتمايل على فرع شجرة، لا تدرى من أين تأتى تلك الأطياف الطائرة وهدير البحر يأخذك بعيداً حيث الحنين للون الأزرق.

- دا بيت واحد صاحبى.

زاغت نظراتك يا بهلول وأنت تحملق فى وجه «أحمد» وكأنك تراه لأول مرة كان وقع قدميك يسابق خطواتك والريح الباردة تدغدغ وجنتيك الساخنتين.

- خايفة؟؟

استفزتك كلمة الخوف، قلت مكابراً:

- المسألة، مالهاش علاقة بالخوف.

اقتربتما من محطة المترو، كانت مكتظة بطلاب الجامعة الذين ينظرون إليكما بفضول لظهوركما المتكرر دوماً.

المنزل على مقربة من محطة المترو.

وقفتَ وحدكَ للحظات، ابتاعَ صاحبك علبة سجائر من كشك قريب.

كان «أحمد» يرتدى چينز وقميصاً قطنياً ويعقد ذراعيّ بلوفر حول رقبته.

أراح ذراعه على كتفك.

مشيتما سوياً فى شارع جانبى.

وقفتَ برهة، ترفع فيها جوربك الذى يقع دوماً منك أثناء سيرك يا بهلول.

أسندتَ قدمكَ على حجر، رفعت البنطلون، شددت الجورب لأعلى، اعتدت لبس البنطلونات منذ صغرك، حتى قصة شعرك، كانت على وتيرة واحدة «آلاجرسون» مثل الولد، كما كان يحلو لأمك أن تحلقها لك، كنت نحيفاً ذا شعر فاحم وعينين سوداوين، ترتدى البنطلونات والقمصان الخفيفة حتى ليخيل، أحياناً، لمن يراك أنك صبى لا محالة.

ودوماً تقفش نفسك ويقفشك الناس وأنت تحاور نفسك بصوت عال حين يزنقك أمر ما وتضرب لخمة.

صعدتما درجات السلم، اقتربتما من السطح، رفع المشاية أخذ المفتاح، سقط قلبك فى قدمك، أول مرة تذهب إلى شقة ويقفل عليكما باب واحد.

كان الطرق على باب الحمام، يخترق رأسك الصغير، فتختبيء داخل عريك، منزوياً فى ركن الحمام، كنت مندهشاً من بدنك الذى بدأ خراط البنات خرطه.

تنزع ملابسك قطعة، قطعة أمام المرآة، تتحسس بروز الترمستين تؤلمانك، وتلحظ نمو الشعيرات فوق عشك الصغير وتحت الإبطين.

يطاردك الطرق، ترتدى ملابسكَ، تدير مقبض الباب ببطء، يطالعك وجهاً مقعراً.

- كنت بتعملى إيه عندك؟ ردي!

كانت عين أمكَ قطتين متحفزتين، وكنت لا تعرف وقتها خطيئتك غير عريك البريء.

وكانت الطامة الكبرى يوم أن نقعت أول نقطة دم فى لباسكِ

الداخلى، يومها فزعت وفتشت عن رحم أمك تستدفئ به؟ وما أن مثلت أمامها حتى انعقد لسانك أمام قسماتها الحادة ونظراتها الباردة واكتفيت ببعض المعلومات من زميلات دراسة قد تخطيء أو تصيب. يومها دخلت الحمام خلسة، وضعت قطعة قماش على بوابة عشك الصغير، ولم تحدث أحداً فى المنزل، حتى شهيتك للطعام انعدمت.

نمت ليلتها مكذراً، تتبادلك الخيالات مع ضوء السهارية، على الحوائط تارة والملابس المعلقة على المشجب تارة أخرى وظللت أرقاً حتى آذان الفجر.

حين صحوتَ، أحسست بسخونة مُبللة تحتك ودوائر من الدماء القانية على الملاءة ولباس نومك، شعرت وكأن أمرك انفضح، وعشت أياماً تتمنى أن يدور حوار مختلف بينك وبين أمك، حوار دافيء، حنون، لكن عبثاً لم يحدث.

أمسكتَ - ذات مرة - وأنت فى الحمام قطعة قطن تفوح منها رائحة الدم الحار، بكيتَ يومها كما لم تبك فى عمرك، لدرجة أنك لم تسمع فيها الطرق العنيف على الباب.

وها أنت يا «بهلول» الآن وصاحبكَ وثالثكما السرير، آه، إنه أمامك كما ولدته أمه، أين شجاعتك، ارتعش جسدك، ضربت لخمة.

أشعل سيجارة بعد أن سئم من إزاحة يده للجورب النايلون (الكولون) الواصل حتى أعلى بطنك.

لملمتَ شعركَ، أسندتَ ظهرك المبلول على الوسادة اللاصقة بالحائط.

ألقى السيجارة فى ركن الغرفة، ونصفها لا يزال مشتعلاً، لمعت عيناه، تضخم جسده وهوى فوق بدنكَ المنكمش، مد كفه

تحت «الكولون»، زادت ضربات قلبك، انفجر عرقك شلالاً تملصت منه، زاحفاً إلى ركن السرير، ضاماً ساقيك وجسدك المبلل بالملح يفور نشوة وخوفاً فى آن واحد.

لم يكن لك من قبل سوى تقفيشات خفيفة فى حوش المنزل أو السطح أو ركن منزو فى الصفوف الخلفية لدور السينما.

- وآخرتها فى حزام العفة ده؟؟

صاح وهو يشد «الكولون» لأسفل وينزع آخر حصن لك، أصابتك رعشة خفيفة، عضضت على شفتيك.

ماذا تفعل الآن يا بهلول، ورأسك الصغير يعجز عن احتواء كل فلسفات التحرر التى قرأت وسمعت عنها.

أية نظرية تشفع لك وحمى الشهوة تزحف نحوكَ. لم يكن أمامك غير بعض كلمات الاعتذار المبعثرة الخائبة وعدوى الحمى تنتقل إليك، فتفور خلاياك وتسكب نشوتك فوق لسعات النار التى أضاءت روحكَ.

ألقيت نفسكَ فى مائه العذب، جدفت معه ضد التيار، ورحت فى غيبوبة الخدر الأولى، لم تفق إلا حين لفحكَ الهواء البارد وأنت تقفز درجات السلم كى تلحق بالمترو الأخير.

دوى انفجار، أعقبه صفارة إنذار، اتسعت الدوائر على الحوائط، تأرجح المصباح الوحيد فى الغرفة.

حوصرت تحت جلدك يا بهلول ودار - بك - الزمن عكس بندول السنين وأنت تطفو على سائل لزج تتداخل فيه الرؤى والشخوص مع جيوش النمل التى بدأت زحفها من أسفل قدميك إلى رأسك.

الدبيب يتصاعد داخل بطنكَ، فترفع يدك الواهنة، تربت على صغيرك، تهدهده، تسبح روحك داخل الحبل السرى لتلتقى

بروحه الصغيرة، تضمه حتى يهدأ ويستكين، تطفوان فوق حلم جميل تتداخل فيه الألوان والفصول، تحكى له، تعرفه بنفسك وتظل تحكى... وتحكى.........

بهلول يحكى عن نفسه فى الحلم

الحكاية الأولي:

حين اغتسلت الشمس فى قلب البحر وردد الصدى آذان المغرب، دفست رأسى فى حضن الراديو، رأيت الألوان القوس قزحية، والحصان الأبيض والأميرة ذات الجدائل الذهب، سمعت صلصلة السيوف وقهقهات الجان وبكاء البنت الفقيرة، اشتممت رائحة الدخان والطيب.

تسابقت دقات قلبى وأنا أتابع مكائد «أم الدواهي» للأمراء والسلاطين وأخشى إيذاءها والليل البهيم.

وكنت حين يصيح الديك، أمد يدى لأنقذ «شهرزاد» من سيف مسرور اللئيم وأتوسل لـ «شهريار» أن يعفو بمقدرته عنها وعن الجاريات الحسناوات اللائى يأمر بقتلهن عندما يصيح الديك.

تصطدم يدى بالواجهة الخشبية للراديو، فأبكى.

ذات مرة، رآنى أبى جاثية على ركبتى، أرفع يدى، زعق:

- بتعملى إيه؟

رددت دون النظر إليه:

- بكلم «شهريار».

أدار زر الراديو خافضاً صوته، وكان الديك لا يزال يصيح،

ضحك وهو يمد يده:

- قومى بلاش عبط.

نظرت إلى الراديو فى أسي:

- راح فين الأمير والغفير والحصان اللى بيطير؟

ضحك أبى عالياً:

- ناموا يا سى «بهلول».

- برضه بتقول «بهلول»؟ فيه بنت اسمها «بهلول»؟

وضع يده فوق رأسي:

- بهلول يا حبيبتى، كائن جميل، بيسلى الملك ويضحك الناس.

- يعنى أنا لو سليت الملك يعفى عن «شهرزاد»؟

شرد والدى ثم أجاب:

- والله، أنت وشطارتك يا سى «بهلول».

الحكاية الثانية:

حين غط الجميع فى النوم، أزحتَ الغطاء برفق، وتسحبت حافية، أدرت مقبض باب البلكونة بحذر، جلست على الكرسى، أضم ساقيّ بين كفيّ ووجهى إلى السماء رأيتها تتفتح ويخرج منها خيول وفرسان وحوريات ينهلن من مجرى عسل وألعاب نارية تطرقع ومراجيح وأطفال يعبئون الهواء فى ملابسهم ويتأرجحون عالياً.

كادت رقبتى أن تنفصل عن جسدى ويقع الكرسى فوقها وصوت أمى يفيقني:

- بسم الله الرحمن الرحيم إيه اللى مطلعك فى البرد ده يا بنتي؟

- شايفة يا أمى، الخيل فى السما بتجرى.

خبطت أمي على صدرها شاهقة:

- سلام قولاً من رب رحيم، البت مخاوية.

جاء أبى على صياحها، حملنى وجرى - بى - إلى الداخل، وضعنى على السرير الكبير ذى الأعمدة المحاسية.

- كباية ميا بسرعة.

جرت - أمى - مسرعة فاهتز جسدها البدين تحت قميص النوم. مال أبى، واضعاً رأسى على الوسادة، أحكم البطانية على بدنى الضئيل صائحاً:

- مش حتبطل عبط يا «بهلول»، قلنا تسلى شهريار وسكتنا، كمان قلبت السما سيما؟

تسلل النعاس إلى عينى، لم أعد أتبين الكلمات من بعضها ورحت فى إغفاءة طويلة.

الحكاية الثالثة:

فى يوم من أيام الدراسة، كان الفناء مليئاً بالأطفال والأشجار، وفى ركن منه عند صنابير المياه، كنت وثلاثة من تلاميذ الفصل نتسابق، انزلقت قدمى، ضحكت إحدى التلميذات نظرت إلى الجلطة وشريط الدم الخارج من ركبتى صاحت:

- دمك أسود.

ضحكت الأخريات، تحاملت على نفسى، حجلت حتى الحائط، أسندت ظهرى، جازة على أسنانى والدموع تكاد تفر من عينى.

حومن حولى، قالت نفس التلميذة مقتربة مني:

- بصوا، دمها أسود.

فتشت تحتى عن زلطة صغيرة وإذا - بى - تأتينى قوة غريبة،

فاطبق على ساق التلميذة ذات الأنف المدبب والرداء المتناسق لتقع متأوهة وسط دهشة الأخريات.

غرزت الزلطة فى ساقها زاعقة:

ـ أنتِ اللى دمك أسود.

وفى صباح اليوم التالى فى حجرة المشرفة كان أولياء الأمور حاضرين.

ـ قربى، ماتخافيش.

كنت أحس بالحنو علىّ من أبلة «سلوي» كان صوتها دافئاً وتجيد سرد الحواديت.

كنت أحب النظر إلى عينيها اللتين تتلونان بفعل أشعة الشمس، فتبدوان مرة خضراء ومرة زرقاء وأحياناً بنفسجية.

صاحت أبلة «سلوي»:

ـ اعتذرى لـ «آية» زميلتك.

رددت مقطبة جبيني:

ـ هى اللى ابتدت الأول.

رد أبو «آية» وكان رجلاً ضخماً ذا شارب كثيف:

ـ تقومى تعوريها!

لحقه أبى وكان وجهه يمتزج بالغضب والارتباك:

ـ أنا آسف بالنيابة عنها، على العموم دول عيال.

بعد انصراف أبو «آية» تحدثت أبلة «سلوي» مع أبى على انفراد فى الوقت الذى وقفت فيه بعيداً أرقب عينيها.

ـ بنتك ذكية وعندها طاقة زايدة، يا ريت تشترك لها فى مكتبة أو تشترى لها قصص، على العموم أنا حعمل لها كارنية لمكتبة المدرسة وادفعها لممارسة الرياضة أو الموسيقى.

تنهد أبى ناظراً نحوي:

- والله أنا مش عارف أشكرك ازاى، البنت شقية جداً، والدتها قلقانة عليها وعلى حواديتها اللى مابتخلص واخواتها بيضحكوا ويقولوا عليها عبيطة.

زفر نفساً طويلاً، مكملاً حديثه:

- مرة تكلم الراديو وتقول فيه بنى آدمين ومرة تشوف حصنة طالعة من السما، وساعات تكلم الدواليب والحيطان والحيوانات حتى الأزهار على أنهم بيفهموها وتفهمهم.

جلجل الجرس، فأستأذنت أبلة «سلوي» من والدى.

قالت محاولة التخفيف عنه:

- بكرة تكبر وتفرح بيها.

تصافحا، وانصرف والدى لحاله.

مشيت متعرجة، محاولة مواكبة خطوات أبلة «سلوي» إلى أن وصلنا للفصل. أدخلتنى قائلة:

- خلى بالك من نفسك وانتبهى فى الحصة.

- حاضر يا أبلة.

رددت فرحة، ظللت أرقبها لفترة، شاردة فى لون عينيها إلى أن أخفتها الحوائط وجلست فى الفصل، مطرقة رأسى لأسفل فى صمت.

- ناولينى حقنة ميثرچين بسرعة.

سارينة النجدة تصفر فى أذنيك يا «بهلول» كحصان لاهث فى سباق مع الوقت.

فردت الممرضة ذراعك، غرز الطبيب سن الابرة فى الوريد، دوامات من الهواء تشفط روحك، تعافر بيديك ورأسك محاولاً الفرار.

الصاج البارد يقشعر بدنك، ويلتصق رداؤك المبلل بالدم

الساخن بجلدك اللزج.

دارت عيناك فزعة بين أرجاء الحجرة.

المصباح المدلى من السقف، المشارط والقطن والشاش المتراصة على المنضدة المعدنية، النوافذ المطلية باللون الأزرق، صفارات الإنذار.

رائحة التعقيم تزداد نفاذاً.

خلعت عنك رداءك، فأضحيت كما ولدتك أمك يا «بهلول»، وددتَ لو صرخت صرختك الأولى للميلاد.

رفعت ساقيك لأعلى، فتحتهما فى وضع الاستعداد، توقف الدبيب فى بطنك، همست فى حبلك السرى، ما من مجيب.

أمسك الطبيب ذراعك، اختطف حقنة سريعة، ربت على رأسك مبتسماً:

- اسمك إيه يا حلوة؟؟

- اسمى.. اسمى..

مالت الغرفة، انقلبت الرؤوس، تداخلت الرؤى.

- ها... قولى اسمك

- اسمى...

انقطع الاتصال تماماً بحبلك السرى يا بهلول.

صفارات الإنذار تصرخ فى وجه الريح، وأنت سابح فى عالم هلامى تختلط فيه الأشياء بالمسميات، فتجرى عكس الريح، يختبىء الزمان فى صدرك يا «بهلول»، يوقظ التداعيات الصغيرة.

خالعاً ظلك الثقيل، تسللتَ، حافى القدمين، حركت مقبض الباب ببطء.

ألقيتَ نظرة أخيرة.

كانت رائحة الأنفاس الغاطة فى النوم حتى آذان الظهر تملأ المنزل، المقاعد متباعدة فى فوضى، بقايا العشاء والأكواب الفارغة تملأ المنزل، وأعقاب السجائر مبعثرة على الأرض، ساعة الحائط معطلة، حتى الجريدة ملقاة بإهمال على مقعد جانبى.

أخذت نفساً عميقاً وأنت تشد حمالة الحقيبة على كتفك، استدرت، ساحباً الباب خلفك وعلى عتبته، انتعلت فردتى حذائك، تاركاً خلفك روحك المطفأة.

ركبت حصان التمرد، ساعياً نحو حياة تصنعها بنفسك وقررت أن تشد رحالك صوب البحر، إلى تلك المدينة الصغيرة التى خرج أحمد من رحمها، ربما ترك لك رسالة، أو بعث إليك من الجبهة شوقه فى قلب البحر... ربما..

وحدكَ، جلست على الأريكة الخشبية، تخترقك نظرات السائقين الذين يحتسون الشاى جماعة.

أنزلت الحقيبة على الأرض، طرقعت أصابعك محتوياً المكان فى نظرة دائرية.

كان الضباب يخلع ثوبه الأخير وقطع الكرتون وأعقاب السجائر والعلب الفارغة تملأ المكان.

كلبان أحدهما أجرب والآخر مقطوع الذيل، على بعد خطوات منهما قطة متسخة رمادية تنكش كومة قاذورات أسفل عمود النور الصديء فى نهاية المحطة.

- يا صباح القشطة، نهارنا نادى.

حملقت فى مصدر الصوت، كان رجلاً قصيراً، يضع نظارات سميكة، خمنت أنه ناظر المحطة.

كانت رأس الرجل محشوة داخل تلفيحة صوف، يتأرجح جسده داخل معطف كالح.

أطرقت رأسك مجيباً:

- صباح الخير يا اسطى.

سقط الوشاح فى حجرك يا «بهلول»، فانتبهت أن ركبتيك عاريتان غطيتهما بوشاحك، رفعت يدك المرتشعة لتزيح خصلات شعر على جبينك، أسندت رأسك على الحائط، متابعاً بعينيك أسراب الطيور المهاجرة.

- لامؤاخذة يا مزمازيل، أنتِ مسافرة وحدك ولا مستنية حد؟

أدرتَ رأسك نحو مصدر الصوت، قلت حانقاً:

- وحدى، فيه مانع؟

- لامؤاخذة، يعني

تسربت رائحة عرقه المكتوم أشحت بوجهك، فابتعد خطوات صائحاً:

- شهل يا اسطى منعم، العربية على وصول.

اقتحم أزيز العجلات شرودك يا بهلول، قمت على حيلك، أحكمت ربط الوشاح حول رقبتك، رفعت الحقيبة، ثبتها على كتفك، اتجهت نحو الأتوبيس الذى أضحى جاهزاً للرحيل رغم قلة ركابه.

اخترت مقعداً بجوار النافذة، رجعت برأسك على ظهر المقعد، أغمضتَ عينيك مع دوران المحرك، بينما نسمات الهواء الباردة تداعب وجهك.

حين اقتربت العربة من المحطة الرئيسية، كان المطر قد بدأ يهطل.

رسمتَ بكفكَ دائرة على زجاج النافذة، فأضحت البيوت كريات نور صغيرة تتخللها ستائر المطر.

حين وطأت قدمك الأرض، شممتَ رائحة اليود الأليفة.

الطريق طويل.

بيوت المدينة واطئة وصوت ارتطام الموج بالشاطئ يمتزج بصفير الرياح واهتزاز الشجر.

أسرعت الخطى، سابقاً المطر وأعمدة النور حتى اقتربت من الجامع الواطيء الذى يقع على ناصية البيت.

دخلت من الباب الخلفى.

دلفت من المطبخ، هاج ذكر البط أسفل الحوض

- مين؟؟

أدركتَ يا «بهلول» الصوت.

- مش معقول!

تعانقتما، والحقيبة لا تزال معلقة على كتفك.

- تعالى، نشفى نفسك.

قادتك من الممر الطويل للطرقة إلى غرفة نوم الحاجة.

كانت «سميحة» أخت أحمد الفتاة المحببة إلى نفسك، والمقاربة لك فى السن، سمراء، خفيفة الظل، تشيع جواً من المرح فى أى مكان وجدت به.

غادرت الغرفة تاركة إياك وحدك داخلها، ألقيت الحقيبة جانباً، جلست على السرير النحاسى الذى تعلو أعمدته ناموسية، وتشم رائحة الصابون المعطر من الملاءات المشغولة التى تصر الحاجة على كيها، والدولاب العتيق ذو المرآة الكبيرة «البلچيكية» كما يصر الحاج أبو أحمد على تسميتها، ولست تعرف يا «بهلول» لماذا يصر على أنها بلچيكية، والكليم الذى يشرب حمرته من دفء المكان، وصورة الزفاف الأثرية التى تتوسط الغرفة، ترتدى فيها الحاجة أم أحمد فستاناً فضفاضاً وطرحة «خرج النجف»، والحاج شامخ بجوارها على رأسه طربوش مكوى وفى عنقه

فيونكة لامعة.

ـ انتى لسه مافكتيش نفسك؟

صاحت «سميحة» التى دخلت الغرفة كالنسمة، وفى إحدى يديها منشفة وفى الأخرى قميص نوم.

نظرت إلى وجهها البشوش، وبدأت بفك الوشاح لينسدل شعرك على كتفيك ثم فك أزرار السترة الصوفية، تناولت المنشفة منها.

فككت رباط حذائك يا «بهلول»، ونزعت الجورب المبلول.

تنهدت «سميحة»:

ـ انتى عاوزه حمام سخن.

ـ أنا باقول كده برضه.

ضحكتما سوياً، مشيت على أطراف أصابعك حتى الحمام.

تركتك «سميحة» وذهبت إلى المطبخ ثم عاودتك وفى يدها وابور «جاز» مشتعل، وضعته على أرض الحمام وفوقه صفيحة ممتلئة حتى نصفها بالماء.

ـ تعالى ندردش شوية، لحد ما المية تسخن، دانتى واحشانى خالص.

جلستما على الكليم وسط الفسحة.

نظرت حولك صائحاً:

ـ فين بقية الناس؟

صمتت «سميحة» فترة، ثم قالت وهى تعد على أصابعها:

ـ بصى يا ستى، نينتك الحاجة والحاج عند أبلة جمالات، وخدوا البنت والولد الصغير معاهم، أما آبيه مجاهد فهو فى ريحنا عند «هانم» خطيبته.

توقفت «سميحة» فجأة، ثم قالت:

- لكن قولى لى، أنتى مش وراكى دراسة فى مصر؟
أطرقت صامتاً
كان لـ «سميحة» حدس لا يخيب.
- فيه حاجة؟ شايفاكى قلقانة!
رددت بصوت خفيض:
- أصلى، أخدت قرار.
اقتربت سميحة أكثر، ربتت على كتفك.
- أى قرار؟
- هجيت من البيت وقررت الاعتماد على نفسى.
قلتَ وأنت تنظر بثبات فى عين سميحة التى ازدادت اتساعاً:
- آبيه أحمد يعرف؟
- هاكتب له جواب على وحدته، أفهمه كل حاجة.
- طب وبعدين؟
- وبعدين المية سخنت.
تركتَ سميحة فى شرودها، أغلقت عليك باب الحمام، وبدأت فى خلع ملابسك.
حين انتهيت من فك حمالة الصدر، وخلعت اللباس الداخلى، بدأت تعب من المياه الساخنة داخل الكوز وتصبها على رأسك، حتى انتهيت من حمامك الساخن وأضحى المكان عابقاً بالبخار وأخذ الوابور «يشحط».
خرجتَ إلى الفسحة لتجد كوب الشاى الدافيء ينتظرك على المنضدة.
- نعيماً.
قالت سميحة مبتسمة.

- الله ينعم عليكى.

ارتشفتَ أول رشفة شاى، فسرى الدفء فى بدنك.

- على فكرة المطر سكت و...

لم تكمل سميحة كلامها، جرت نحو أصوات الأقدام المتضافرة مع النبرات العالية الآتية من الشارع.

- الجماعة وصلوا.

اهتز كوب الشاى فى يدك يا «بهلول»، وضعت الكوب قلقاً على المائدة، ماذا تقول لهم وخاصة الحاجة بطبعها الحاد، وصرامتها إزاء ما هو غير مألوف.

اقتحم الصغيران الصالة جرياً، تعلق الصغير برقبتك، بينما اكتفت الصغيرة بتقبيلك.

سمعت دقات قلبك وأنت فى انتظار الحاجة، تأبطت سميحة ذراع أبيها الذى ما أن رآك حتى انفرجت شفتاه عن السنة الفضية ضاحكاً:

- أهلاً يا سى «بهلول».

حين رأى الوجوم على وجهك، حاول مداراة ضحكته.

- انتى لسه بتزعلى لما أقول لك «بهلول»؟

ضحكت سميحة، تقافز الصغيران، ابتسمت الحاجة.

- انت دايماً تتكشها يا حاج، حمداً لله ع السلامة يا بنتى.

- الله يسلمك يا نينة.

زعق الحاج:

- جعان.

خلعت الحاجة معطفها.

- حالاً، ياللا يا سميحة معايا.

- أقوم أحضر معاكم؟

قلت وأنتَ تهم بالقيام:

رد الحاج:

ـ خليكى مستريحة، انتى لسة واصلة.

أسرعت الحاجة وخلفها سميحة إلى المطبخ، بينما دخل الحاج حجرته ليخرج منها بجلباب فضفاض، دخل الحمام بالقبقاب، أما الصغيران فاختفيا، لكن الكركبة فوق السطح أفشت وجودهما.

حين علا صوت المكبر معلناً آذان العشاء، كانت الحاجة وابنتها قد انتهيتا من تجهيز الطعام، نادت سميحة على الصغار فنزلا مسرعين على الدرج الخشبى.

اصطفت الصحون على السفرة، فرد الحاج ذراعه نحو صحن الغموس، وبعد أن هدأت عصافير بطنه قليلاً، سأل:

ـ خير يا بنتى، وازى اللى عندك فى «مصر»؟

بلعت ريقك...

ـ الحمد لله.

أردف الحاج وهو يشق الرغيف نصفين:

ـ وأحمد ناوى يحصلك على هنا؟

رددت ووجهك فى الصحن:

ـ «أحمد» ما يعرفش إنى هنا.

طرق إلى مسمعك قبل قلبك صوت الملعقة التى وقعت من يد الحاجة، تلاها حوار بالعيون، لم يستمر طويلاً.

قالت الحاجة:

ـ أحمد ما عندوش فكرة، ده كلام!

تدخلت «سميحة» فى الحوار مخففة وطأته:

ـ أخبار الجامعة إيه فى مصر؟ لسه فيها مظاهرات واللا

هديت.

رددتَ عليها يا «بهلول»، كواجب تؤديه ودماغك مشغول:

- هديت.

- وانتى سايبة دراستك ليه؟ وإيه اللى حدفك علينا ف ساعة زى دي؟ وفين أحمد؟ وأخبار أمك وأبوك إيه؟ و... و...

مطرٌ من الأسئلة هطل من فم الحاجة، جعلك تتلمس الخروج من عنق اللحظة.

- أنا هابعت جواب لـ «أحمد» أفهمه إن...

لحقك الحاج وهو يرمق زوجته بنظرة صارمة محاولاً فرملة لسانها:

- كملى عشاكى يا بنتى، والصباح رباح.

قطبت الحاجة جبينها زاعقة فى الصغار:

- قومى يا بت انتى وهو، ناموا.

نظر الصغيران لبعضهما، وما هى إلا لحظات وكانا طائرين خارج الصالة.

انسحبت سميحة بهدوء، زفر الحاج بقوة، قاذفاً الفوطة على المنضدة.

- أنا خارج أشم هوا.

لم يتبق غيرك والحاجة يا «بهلول».

تلاقت أعينكما، فأطرقت رأسك إلى أسفل صامتاً.

- وآخرتها؟

كان سؤال الحاجة كالطلقة الموجهة، و«آخرتها»؟ ماذا تقول لها يا «بهلول»؟ لقد أفهمتها أنك سوف تبعث خطاباً لأحمد، تشرح فيه كل شيء، ماذا تقول لها؟ ومن أين تبدأ وتجعلها مطمئنة؟ ستقول لها أنك تركت خلف ظهرك حياة ترفضها فى

بيت أهلك، ستظن ـ بك ـ الظنون، وتعتقد أن ابنها وقع على جذور رقبته ولم يسم عليه أحد، وكانت وقعته سوداء مع فتاة يسهل عليها الفرار من بيت أهلها؛ وكيف توصل إليها أن المسألة ليست تمرداً من أجل رجل فحسب، بل لأنك تبغى حياة أفضل تصنعها بنفسك، وتتحمل حلوها ومرها مع الشخص الذى اختاره قلبك، وتقنعها بأن الوقت حان لكى تعتمد على نفسك، بعد أن صمم أبوك على سحب أوراقك من الجامعة وترحيلك خارج البلاد مع عريس لم تر إلا صورته، وعمره يضاعف عمرك، كيف تشرح لها أنك لست جاموسة يقايضون عليها وهى التى جروها جراً لتزف وهى طفلة لم تتعد الثالثة عشر.

وكشأنك فى اللحظات الحرجة تترك لعفويتك الكلام:

ـ أبويا كان عاوز يقعدنى من الجامعة، ويجوزنى غصب عنى، وأنا باحب ابنكم ورايداه.

صمتت الحاجة، على عكس ما توقعت يا «بهلول».

تنهدت، طال صمتها، وكأنما نزل عليها سهم الله، أحكمت لف طرحتها السوداء على رأسها، ثبتت عينيها فى عينيك قاطعة الصمت:

ـ داهية يكونوا عملوا حاجة ف ابنى، دانا ما يكفينيش فيه عيلتكم بحالها.

امتقع لونك يا «بهلول»، أخذت نفساً طويلاً:

ـ اطمنى، ابنك يعرف يصون نفسه كويس، وكان دايماً يقول عنكم ان أنتم أهلى.

خفف كلامك الأخير وطأة المخاوف عند الحاجة، شردت بعينيها قليلاً، بدا على أساريرها الارتياح:

ـ طبعاً أهل، يعنى تشترى ابننا ونفوتك؟

جاءت كلماتها بلسماً لك يا «بهلول»، همست فى سرك «الحمد لله».

اقتحمت الحاجة شرودك:

- قومى يا بنتى شوفى حالك، واللى يعمله ربنا يكون.

قمت معها، لملمت الصحون الفارغة وهى لا تزال تردد:

- اللى يعمله ربنا يكون.

الفصل الثانى



فتحت عينيك يا بهلول، على شريط ضيق من الضوء يتسرب من النافذة المغلقة. تقلبت فى فراشك، سمعت تزييقاً بجوارك مختلطاً بزقزقة العصافير.

بحلقت، رأيت قطعة لحم حمراء ملفوفة فى قماش أبيض، لم تميز منه غير شعر أسود فاحم.

جاءك صوت أمك:

- المحروس، ابن الغالى.

ابتلع صمتك الدفين، لهجة السخرية، تداركت أمك اندفاعها، صاحت بصوت مرتبك:

- بركة ان قمت بالسلامة.

لكن لسانها المفلوت، غلب على طبعها المصطنع:

- أخوكى، راح يشوف لنا عربية نروح بيها، حاكم اليوم هنا بالشيء الفلانى و... لم تنصت لبقية كلامها، كان ذهنك شارداً فى الصبى الأسمر الذى طالما حلمت به وتصورته شبيهاً بـ «أحمد».

حدقت فى وجهه، كان منتفخاً وقانياً وعيناه لا تزالان نائمتين كحمل وديع.

تنهدت، حاولت النهوض، خذلك الوهن ووخز أسفل فخذك، أتيت، لحقتك أمك، أمسكت بكتفيك حتى اعتدلت على ظهر السرير.

ـ أصلهم فتحوا شق تحتك بعد دوخة.

أسلمك ضعفك إلى واقع لا خيار فيه، المثول لأمك وأخيك حتى يشتد عودك وتصبح قادراً على اتخاذ قرار مناسب لخطوتك المقبلة.

فتحت الممرضة الباب، دافعة عربة صغيرة.

ـ الفطار.

صاحت مبتسمة، فتحت النافذة، غمرتك الشمس ضاحكة مداعبة المولود الذى طقطق برأسه وصوصو.

فتحت درج الكومودينو، هزت الترمومتر، وضعته أسفل لسانك وهى تنظر إلى ساعتها:

ـ عال قوى، حمد الله على السلامة.

ناغشت الوليد، بينما وقفت أمك على الجانب الآخر من السرير تتصعب بشفتيها.

رفعت إليك الصغير مبسملة، مددت إليها كفين مرتعشتين، ضممته إلى صدرك، فتحت أزرار قميصك، ساعدتك الممرضة على التقاط حلمتك النافرة بفمه المحندق.

ضغطت بيدها على ثديك، اندفع السرسوب، استشعرت الدفء والألفة يا بهلول، رحلت وإياه إلى نبع القلب المفقود والمتوهج على الجبهة.

أضحى الشوق دمعتين معلقتين بين الحنين والانتظار، ابتلت شفتاك بقطرات مالحة.

أخذك الحنين إلى اللون الأزرق، تلك المدينة الصغيرة فى قلب البحر، لكن يدك الواهنة لم تطلها ومركبة فؤادك غير قادرة على الطفو بعد.

جلست أمك على مقعد رب النافذة، أدارت زر الراديو

الترانزستور، صدحت موسيقى صاخبة، تلاها نشيد:

«خلى السلاح صاحى، صاحي
لو نامت الدنيا صاحى مع سلاحي
سلاحى ف ايديا، نهار وليل صاحي
ينادى يا ثوار، عدونا غدار»

فرت روحك داخل شوق يصل دويه إلى الجبهة، عضضت على شفتيك وأنت تميل بصغيرك وتبسمل، ربتت الممرضة على كتفك، ثم دفعت عربة الإفطار بعد فروغها إلى خارج الحجرة.

أخذت نفساً عميقاً، محدقاً خارج النافذة.

حملت الأشجار صغيرها حانية، رفعته حتى قبلته الشمس فى عينيه الجميلتين، وامتطى فارسها الأسمر حصاناً أبيض اخترق طبقة الزجاج مبتسماً، قبلها حانياً، حملها معه وسط الأشجار والعصافير، رفعها إلى أعلى مئذنة وكنيسة، دار بها فى رقصة مجنونة، تحبه، طالما حلمت به وحلم بها، اقتحما الدخان ودوى الرصاص، اشتما رائحة الدماء الأليفة، امتزجا بها وامتزجت بهما الأرض، فأنبتت فرعاً زاهياً ملفوفاً ببندقية وفرحة عيونها سمراء كالتراب الذى يدافع حبها/ عشقها عنه.

انفتح الباب، دخل أخوك الحجرة مندفعاً، وفى إثره عاملة النظافة:

- انتو لسه ماالميتوش الحاجة، التاكسى بيعد.

قفزت أمك من فوق الكرسى، تحركت سريعاً فى أرجاء الحجرة.

جمعت الغيارات والكافولات داخل كيس نايلون، وضعتهم وبقية الملابس فى حقيبة جلدية صغيرة، عانت فى شد سوستتها، دلفت إلى الحمام، لفت الصابونة فى كيس نايلون

صغير، وضعتها فى حقيبة يدها مع الترانزستور.

وعلى صوت الجلبة داخل الحجرة دخلت الممرضة صائحة:

- نشوفكم على خير.

تلتها عاملة النظافة:

- تحت أمركم يا بهوات.

تحركتا، نحوك يا بهلول، أمسكت كل منهما بذراع وانزلاك من على السرير برفق، ثم رفعت الممرضة الوليد، أحكمت الغطاء عليه، وناولتك إياه بهدوء، ضممته بحنو إلى صدرك.

اقترب أخوك منهما، وضع يده فى جيب الممرضة صائحاً:

- اقسموها سوا!

سرت بطيئاً خلف أمك وأخيك إلى أن لفحتك حبات هواء خريفية.

دار رأسك مع دوران العجلات والشوارع فى امتدادها أمام عينيك.

كانت السواتر حواجز بين المد والشوف، والنوافذ الزرقاء تكسو المدينة واللافتات الفاقعة الألوان منتشرة.

عربات الإسعاف تروح وتجيء، والناس وحتى الأشجار أضحوا بلون الكاكى.

أحكمت الغطاء على رأس صغيرك، مررت بعينيك على عدد من الثكنات العسكرية شردت، تخنقك دمعة اللقاء/ الفراق.

الصحراء نقطة التقاء روحك بالمجهول يا بهلول، ونباح الكلاب أنياب مفتوحة ترددها أصداء الجبال المتعرجة.

تعثرت قدمك بعلبة صدئة، قذفتها إلى أبعد مدى، أنهكك السير وبدأ العرق يتصبب من جبينك رغم عواء ديسمبر.

لاح على مرمى بصرك كشك حراسة ذو أضلاع خشبية

متآكلة، ومن التجاويف الفاصلة بينهم، بدت كومة سوداء يخرج من رأسها ماسورة بندقية، ثم بدأت الكومة السوداء تتشكل عند اقترابك من الكشك، جندى حراسة وبندقية بسونكى أعلى ظهره.

تقدم نحوك، والعروق تنفر من رقبته:

- مين هناك؟

رددتَ بصوت خفيض:

- أنا يا شاويش، بادور على وحدة عسكرية هنا.

أنزل البندقية على الأرض:

- دخلك إيه بالوحدة العسكرية؟ وإيه اللى حدفك فى قلب الصحرا تسألي؟

حين تحركتَ قليلاً يا بهلول، رفع البندقية فى وجهك صائحاً:

- اقفى مكانك.

تسمرت مكانك، رددت متلعثماً:

- جوزى غايب، سألت عنه فى وحدته القديمة، قالوا نقلوه على هنا، ومن يومها وأنا بادور عليه لحد ما عترت عليكم فى الجبل.

تجمعت الدموع فى عينيك يا بهلول.

رق قلب الجندى، مشى عدة خطوات أمامك، فارداً ذراعه فى اتجاه مستقيم.

- فيه قشلاق هناك، تمشى طوالى، يمكن تلاقيه.

- كتر خيرك يا دفعة.

رددت سريعاً، ثم جريت تسبقك أنفاسك اللاهثة، إلى أن استوقفك مبنى من طابق واحد، حوله سور دائرى، ومجموعة من الحراس على بوابته، وأمامه بمسافة قصيرة كشك حراسة.

كان الشاويش الواقف أمام الكشك ممتلىء الجسد قصير البنية ذو شارب كثيف وعينين صقراويتين، لاحظتَ أنه يضع شريطاً أحمر أعلى ذراعه وهكذا بقية الحراس.

كان منهمكاً فى الحديث مع اثنين من الجنود.

اقتربتَ بحذر، استدار الشاويش على صوت أقدامك، ضاقت عيناه، قطب جبينه، تقدم نحوك:

- انتى مين؟

كان صوته كالطلقة المفاجئة.

أصابك الدوار يا بهلول.

عاود بصوت أجش:

- بطاقتك؟

فتشت داخل حقيبة يدك، لم تجدها، سقط قلبك فى قدميك، اقترب الجنديان منك، فأصبحت داخل ثالوث من الصعب الإفلات منه.

نكشت فى جيوب معطفك، فتحت أزرار السترة، وفى جيب القميص الداخلى وجدتها، صعد دمك من قدميك إلى رأسك.

اختطفها الشاويش من يدك، قلبها على كذا وجه، متناوباً فى نظراته بين الصورة ووجهك.

بدأ الخوف يتسرب إلى قلبك، أتراك قد وقعت فى شر أعمالك يا بهلول؟

وقف الجنديان يحرسانك، دخل الشاويش إلى كشك الحراسة، أمسك يد تليفون معلق، أخذ يدورها حتى جاءه صوت، لم تفهم نبراته، إذ كان مشوشاً.

- اتفضلى قدامى.

كانت النظرات الصارمة للشاويش تنبيء عن شيء غير

طبيعى حدث أو سوف يحدث.

أطرقت رأسك لأسفل، سرت صامتاً خلفه، بينما ظل الجنديان أمام كشك الحراسة. حين وصلتما إلى البوابة، تحدث الشاويش مع أحد الجنود:

ـ وصلها لحضرة الضابط.

سلمه بطاقتك، جرى الجندى، فى الوقت الذى تعد فيه أنفاسك لاهثاً خلفه.

كانت الثكنة العسكرية واطئة، تحوطها أسلاك شائكة، وممر طويل يصل إلى ساحة كبيرة، يصطف فيها مجموعة من الجنود أمام ضابط يأتمرون بكلامه.

عرجت والجندى إلى ممر جانبى أوصلكما إلى مبنى صغير مكون من حجرتين واسعتين أمامهما حديقة صغيرة بها عدد لا بأس به من أصص الزرع.

كان الجنود يبحلقون فيك وهم واقفون فى أماكنهم كالتماثيل.

هممت أن تدخل مع الجندى، إلا أنه منعك زاعقاً:

ـ خليكى مكانك.

رائحة الحصار تملأ المكان، الجنود يذهبون ويجيئون، دبيب أقدامهم الغليظة يرحل بك إلى غل محبوس فى صدرك.

ـ كيلو اللحمة بقى بجنيه، والفقير راح يعمل إيه؟

انفجر الغيظ المكتوم.

انتشر الطلاب فى كل مكان بأرجاء الجامعة حتى وصلوا إلى البوابة.

المنشورات تتطاير، أعداد الطلاب تتزايد، رفعك أحمد إلى أعلى حتى اعتليت كتفيه، وبدأت تهتف مع الآخرين:

- عاوزين حكومة حرة، دى العيشة بقت مرة.

دبيب الأقدام الغليظة يقترب من أسوار الجامعة، طرقعة فى الهواء أحدثت شريطاً من دخان اندفع فجأة بعد إلقاء القنبلة المسيلة للدموع.

اقتحمت المظاهرة الطلابية البوابة، ابتلع الميدان الأعداد الهائلة التى أصبح من الصعب وقفها.

أبواق السيارات تزداد علواً، انضم بعض رجال الشارع إلى الطلاب.

عربات الأمن المركزى تقف على رأس الميدان، تحرك الجنود بحركة نظامية.

نزلت الهروات فوق الرؤوس، تفرقت المظاهرة، أطلق الطلاب سيقانهم فى الحوارى والأزقة، جريت من زقاق إلى زقاق، حتى وصلت إلى شارع جانبى، وقفت على محطة الأتوبيس متلفتاً وحدك بعد أن تاه منك صاحبك فى الزحمة يا بهلول. جف حلقك، ودارت بك الدوائر، ترى ماذا فعل أحمد؟ ولم هم متشددين هكذا؟ وماذا فعلت بنفسك يا بهلول؟

- اتفضلى.

صاح الجندى بعد خروجه من حجرة الضابط.

ترددت فى الدخول، ثم حزمت أمرك وألقيت بنفسك دفعة واحدة، حتى وجدت روحك أمام مكتب الضابط والجندى خلفك.

انتبهت أن بطاقتك موضوعة أمامه على المكتب، لم تكن تعرف فى الرتب العسكرية لكنك لاحظت أنه هادئ الملامح، يتحدث بصوت خفيض، مما أشاع بعض الراحة فى نفسك غير المطمئنة.

أدى الجندى التمام، بعد أن سلمك إلى مكتب الضابط، ثم

انصرف إلى حال سبيله.

دقائق من الصمت البارد، صاح بعدها الضابط متفرساً فى وجهك:

ـ انتى مش عارفه إنه ممنوع الحضور هنا إلا بتصريح؟

لم تعرف أى تصريح يقصد، ولا من أين تبدأ الكلام معه، وتبرر له مجيئك، تركت نفسك كعادتك لعفويتك تتحدث:

ـ أخبار جوزى مقطوعة عنى، سألت عنه فى الوحدة القديمة قالوا اتحول هنا، و...

قطع الضابط حديثك المرتبك، جالت نظراته على المكتب، أمسك بالهاتف، أدار القرص، سألك دون النظر إليك:

ـ اسمه؟

رددت سريعاً:

ـ أحمد أبو الفتوح يا فندم.

السماعة معلقة بين أذن الضابط وفمه، وعيناه تتحركان على جسدك من فوقك لتحتك.

ـ أدينى الملازم حازم!

أخذت تراقب شفتيه بشغف:

ـ أيوه أحمد، أحمد أبو الفتوح، موجود عندك فى الحجز؟ طيب، بعدين، بعدين.

حجز، أى حجز يقصد الضابط يا بهلول، قلبك كان شاعراً أن هذا اليوم لن يمر.

نظر الضابط فى وجهك وعينيك الزائغتين بعد أن ألجمك الخوف حتى عن السؤال.

صاح فى هدوء ممسكاً بطاقتك فى يده:

ـ المرة دى ها اعديها لك، تقابليه ديقتين مش أكثر، مش

عايز أشوفك هنا تانى، مفهوم؟

وجدت نفسك تؤدى تحية التمام:

- مفهوم يا فندم.

ضغط الضابط على زر مكتبه بعد أن قضم ضحكته، مد يده بالبطاقة نحوك:

- خدي!

تناولتها منه بيد مرتعشة، وأنت تهمس:

- شكراً.

انفتح الباب، مندفعاً منه نفس الجندى الذى أتى بك، أدى التمام صائحاً:

- تحت أمرك يا فندم.

- وصلها للملازم حازم وتعالى لي

- أمرك يا فندم.

مشيت خلف الجندى، وبحلقة الجنود تحاوطك، انتقلتما إلى الجهة المقابلة لمكتب الضابط، مشيتما فى ممر طويل مؤدٍ إلى البوابة، وقبل الوصول إليها بقليل عرجتما يميناً، حيث بدا على مرمى البصر مبنى واطيء محاط بأسلاك شائكة يقف على بابه جندى ضخم الجثة.

ما أن دخلت من بابها خلف الجندى حتى لمحت أحمد مطرق الرأس، شاحباً، مطفأ العينين على يمينه يقف ضابط خمنت أنه الملازم حازم.

أدى الجندى التمام.

- سيبها وشوف اللى وراك يا عسكرى.

- أمرك يا فندم.

وأنت متسمر مكانك يا بهلول تضطرب المشاعر وتتناقض

داخلك، اقتربت أكثر، ابتسم أحمد ابتسامة مطفأة، وعيناه تدوران.

قدامك دقيقتين مش أكثر، إيه هاتفضلوا مبلمين؟

صاح الملازم حازم وهو يهز رأسه.

كان عمره يقارب عمر أحمد، طويل دقيق الملامح، شاهق البياض مثل أولاد الأكابر.

- خلصونا.

جلس أحمد على الأريكة الخشبية الوحيدة بالحجرة، الجندى الضخم يروح ويجيء خارج الباب المفتوح.

قال أحمد:

- اقعدى مفيش وقت.

جلست بالقرب منه، تجتاحك أكثر من رغبة فى آن واحد، تحتضنه، تسأله، تحكى له، تهربان، تتعانقان، تتشاجران.

لم يترك لك أحمد فرصة الاستطراد فى خيالك، تحدث بصوت يكاد يكون همساً:

- نزلونى من ضابط احتياط لنفر.

تجمد وجهك، اتسعت عيناك دون أن تنطق.

أردف:

- وصلهم ملفى السياسى من الجامعة، معاكى سجاير؟

هرب الكلام من قلبك يا بهلول، كل ما كنت تختزنه لتقوله ذهب أدراج الرياح.

نظرت للجندى أمام الباب الذى ما أن توارى قليلاً حتى أخرجت من حقيبتك زوجاً من الجنيهات وسجائر فرط.

أرجع أحمد النقود بسرعة، وضعها فى بطن يدك صائحاً:

- ممنوع الفلوس هنا إلا بحوالة، خليها لوقت عوزة.

وفى لمح البصر، رفع أحمد ذيل بنطلونه ودس السجائر داخل جوربه الميرى. ربت على كتفك:

ـ كلها أسبوعين ويتفك حبسى، الحمد لله أن التحقيق انتهى على قد كده.

ضغطت على يده:

ـ شدة وتزول.

احتواك بعينيه المجهدتين، برق الحنين فى قلبك وأنت تقترب منه، تكاد تلاصقه.

قطع الجندى اشتياقكما المبتور:

ـ الزيارة انتهت.

سحبت يدك من يده ببطء.

ـ خلى بالك من نفسك.

ألقيت نظرة خارج الباب، رأيت الملازم حازم أمام مبنى مواجه، يتحدث مع رتبة عسكرية.

مشى أحمد خلف الجندى، حتى وصلا أمام الملازم، أدى الجندى التمام، تاركاً أحمد وحده مع الضابط، ثم استدار عائداً إلى مكانه.

أعطيتهم ظهرك يا بهلول، مشيت فى اتجاه البوابة الرئيسية، تدق خطواتك الوئيدة على رأسك دقات رتيبة منتظمة.

الفصل الثالث



حين أذن المغرب، كنت قد اقتربت من ناصية الشارع، لمحت البنت «نجية» بمنديلها المعصوب على جبهتها وجلبابها الذى يكنس تراب الشارع.

اتجهت نحوك صائحة:

ـ الست «زوبة» عاوزاكى ضرورى.

رمشت يا «بهلول»:

ـ متعرفيش ليه؟؟

ـ أبداً.

قالت فى عجلة من أمرها، وفى لحظات ذابت فى زحمة الشارع.

كان بيت المغتربات أو بيت أبلة «زوبة» كما يطلق عليه فى الحى، مكون من دورين، الدور الأول به أربع شقق للطالبات المغتربات.

الشقتان الأماميتان بهما حجرتان، فى كل حجرة أربعة سراير وصالة كبيرة وحمام ومطبخ، أما الشقتان الداخليتان، فكانتا صغيرتى المساحة، فى كل واحدة حجرة وصالة بمنافعها، تفوح منهما رائحة المناور النتنة.

أما الدور الثانى، فيحتوى شقتين، بكل منهما أربع حجرات بمنافعهم.

شقة للطالبات المغتربات، والأخرى تقطنها أبلة «زوبة».

وأبلة «زوبة»، سيدةضخمة الجثة، بيضاء، ذات شعر مصبوغ ينسدل على كتفيها، صوتها رخيم وعيناها سوداوان لامعتان تتقدان قوة وذكاء.

دلفت إلى الشقة الأرضية يسار السلم، طرقت الباب، فتحت لك «فاطمة» الفتاة الأسوانية بلهجتها ذات الجيم المعطشة.

كانت فارعة الطول، سمراء، تنسدل ضفيرة شعرها على ظهرها، ترتدى أغلب ملابسها بأكمام طويلة، قماشها يغطى قدميها، ودوماً لها الحظوة فى زيارة معتبرة من الصعيد، ليعم الخير على الجميع من رائحة الفطائر «المشلتتة» وأنواع الطيور وأقراص «المنين» والـ «بتاو».

كنت يا «بهلول» و«فاطمة» الصعيدية و«مني» المنصورية و«سعدية» الشرقاوية تقطنون تلك الشقة فى الدور الأرضى، سرائركم مصطفة بجوار بعضها، حولها منضدة كبيرة للأكل والمذاكرة ومصرح لكل واحدة ببطانية و«كوفرتة» ولكل واحدة ضلفة دولاب وحيد، صديء. أما المدخل فيحتوى على منضدة خشبية عليها بعض متعلقات المطبخ، ووابور جاز كبير، وطبق صاج لكل واحدة، وملعقة وسكين كبير للجميع.

الحمام، بالكاد مقاس موضع قدم، وهو «كنيف» بلدى داخل المدخل.

ألقيت نظرة على حجرة النوم، كانت السرائر فارغة من الأرواح.

وضعت كتبك جانباً على المنضدة، سألتها عن «سعدية» و«مني».

ردت عليك وهى تحرك مكبس الوابور:

- منى خرجت، و«سعدية» عند أبلة «زوبة».

تحركت يا «بهلول» صوب باب الشقة، بادرتك فاطمة:

- والشاي؟

رددت وأنت تدير المقبض:

- وقت تاني

صعدتَ السلم مشغول البال يا «بهلول»، تذكرت أول مرة حضرت إلى بيت المغتربات، كانت ليلة ممطرة تعبت فيها من اللف والدوران فى الشوارع إلى أن قادتك قدماك إلى بيت أبلة «زوبة» المشهور فى المنطقة الواقعة خلف الجامعة.

استقبلتك «سعدية»، أول وجه رأيته فى الدار، كانت نازحة من قرية صغيرة من وجه بحرى، قمحية اللون، شعرها بنى غامق، تضفره ضفيرتين، ترتدى جلباباً واسعاً ذا ألوان فاقعة، وعيناها واسعتان وبشرتها لفحتها الشمس.

كان فراشك يجاورها يا «بهلول»، تتقلب فيه أرقاً من صوت شخيرها أو استذكارها بصوت عال.

كانت قليلة الكلام، متحفظة فى تصرفاتها ما عدا انتعالها لـ «قبقاب» حين يؤذن لصلاة الفجر تحديداً.

كانت فى نفس الجامعة، نفس الكلية، لكن فى قسم مختلف، أحياناً، تجد عينيها تلاحقانك وأنت تعلق مجلة حائط أو تدور فى مظاهرة داخل الحرم الجامعى.

احتلت منى المنصورية السرير الواقع قبالة الشرفة، ودوماً عيناها شاردتان خارج الزجاج تنصت لصفير لا يعرفه أحد غيرها، وفجأة تهب من فراشها حين يأتيها، تبعثر ملابسها داخل الدولاب، تختار الألوان الصارخة، تفتح علبة مكياجها وتضع ما أنزله الله على بشرتها من مساحيق أمام المرآة الوحيدة بالغرفة.

ثم تصبح فى ثوان خارج بيت الطالبات المغتربات، تتبعها

العيون والغيرة المكتومة فى الصدور.

أما فاطمة الأسوانية، فكانت فارعة القامة، بشرتها متشبعة بطين الأرض وضفيرتها السوداء الطويلة تتمايل على ظهرها حين تتمشى فى الحجرة.

كانت أقربهم إلى قلبك يا «بهلول» وأكثرهم كرماً وحنواً.

حين يشتد بك الجوع أو يدهمك المرض تصر أن تشاركها الطعام وتساندك دون أن تشعر لحظة احتياجك إليها.

أحياناً، كانت تستعير بعض كتبك، تقرأ فيها ثم تمد شفتيها صائحة:

- دى حاجات تتعب الدماغ.

تحاول أن تشرح لها، فتنصت إليك باهتمام، وأحياناً يصيبها الملل والضيق فتحكى لك هامسة عن قلبها الذى هوى زميلاً لها فى كلية الحقوق على غير دين عشيرتها، ينتظرها كل يوم على الناصية، يذهب بها إلى الجامعة ويرجعها، حين يراك صدفة يتوارى، وتمشى أنت فى حال سبيلك يا «بهلول» وكأن شيئاً لم يكن.

كان جميل الطلعة، قمحياً، ذا عينين سوداوين وأنف دقيق وشارب رفيع، يغض بصره إذا جاءت عينه فى عين إحدى الفتيات.

بعد عودتها من مقابلته، تنتابها حالة متوترة فتحكى لك، إنها تتعذب، إذ تعلم أنه سوف يفارقها إن آجلاً أو عاجلاً وأنها سوف تساق كالجاموسة ليلة دخلتها على أحد أبناء عمومتها الذى اختارته لها قبيلتها منذ كانت طفلة لا تعى، وتتمنى ألا يجيء هذا اليوم أبداً، فالموت أرحم من فراقه.

وصلتَ إلى الدور الثانى يا «بهلول»، ضغطت على زر

الجرس ، فتحت لك البنت نجية الخادمة الصغيرة لأبلة زوبة، والتى تقوم كل يوم جمعة بمسح السلم وتنظيف الحجرات.

كانت عيناها ضيقتان وجسدها نحيلاً، ودوماً تراها حافية، تعصب رأسها بمنديل على جبهتها الصغيرة.

فتحت الباب على آخره.

- أتفضلى يا أبلة.

دخلت متباطئاً يا «بهلول» خلعت حذاءك جانباً.

غاصت قدماك فى السجادة الوثيرة.

- يا ساتر.

عبرتَ الصالة إلى حجرة الصالون. تركتك نجية إلى حال سبيلها، وحيداً مع سعدية التى ما أن رأتك حتى هبت واقفة شاحبة اللون.

هززت رأسك يا «بهلول» .

- سلام عليكم.

مضغت الكلام :

- وعليكم السلام.

جلستما صامتتين.

كانت سعدية تنظر إلى أسفل طيلة لحظات الصمت، بينما أخذت تتأمل يا «بهلول» المقاعد الضخمة ذات الأطر المذهبة والصور المعلقة على الحائط.

كانت صورة زفاف أبلة زوبة تتوسط الحائط، شابة جميلة، نحيلة، وجهها طفولى، باسمة الثغر، لا تتعدى الخامسة عشرة، تتأبط رجلاً أقصر منها قامة، مصبوغ الشعر تعدى الأربعين من عمره.

وصورة أخرى لرجل كبير السن، ذى شنب كثيف وذقن طويلة

وطربوش محكم الوضع فوق رأسه.

وصورة ملونة لشاب فى العشرينات تقريباً، وسيم، بهى الطلعة، يشبه أبلة زوبة، أخذ منها عينيه السوداوين الواسعتين وشعره الفاحم.

- دورى لسيدك على العكاز بتاعه يا بت، شوفى العيال خبوه فين؟

قطع صوت أبلة زوبة شرودك يا «بهلول»، دخلت الصالون دون سلام، جلست بجسدها الضخم على الأريكة الواسعة فى مواجهتك مباشرة، بينما سعدية لم تزل فى مقعد جانبى خافضة الرأس.

كانت ترتدى روباً قطيفياً أزرق وتلم شعرها بإيشارب مزركش تتدلى خصلات شعرها الأمامية المصبوغة على جبهتها، فى قدميها منتوفلى وردى اللون، وعلى صدرها سلسلة ماشاء الله ذهبية كبيرة تتأرجح على صدرها والأساور الذهبية تصلصل حول رسغها.

وضعت كفها الضخم فى جيب الروب، أخرجت منه قطعة بلاستيكية صغيرة، عليها صورة، أعطتك إياها يا «بهلول».

نظرت إليها ملياً، متراوحاً ببصرك بين سعدية وأبلة زوبة.

- دا كارنيه الجامعة بتاعى.

سلطت أبلة زوبة نظرة حادة على وجه سعدية الشاحب.

- زميلتك سعدية جابته من كام يوم، بتقول إنك شيوعية، بتخرجى فى مظاهرات والبوليس بيدور عليكى.

وقفت فجأة يا «بهلول» كمن لدغتك حية، تقدمت نحو سعدية الخافضة رأسها صائحاً فى أسي:

- ليه؟؟

وقفت سعدية مشيحة بوجهها عنك.

اندفع الكلام كالرصاص من فمك:

- ادينى وشك، واجهينى، قولى لى سبب واحد..

جرت سعدية مخبئة وجهها بين كفيها نحو باب المنزل، جريت خلفها يا «بهلول» استوقفتك أبلة زوبة:

- سيبيها.

وقفت ترقب سعدية وهى تفتح الباب مهرولة، تذكرت الأيام الأخيرة لعلاقتك بها، رأيتها مرة فى شارع جانبى، مصابيحه خافتة، تتأبط ذراع أحد الرجال، تجاهلت سلامك وكأنها لم ترك من قبل وادعت ليلتها إنه ابن عمها وقارئ فتحتها.

ألقيتها من دماغك يا «بهلول»، إلا أنك كنت تلاحظ بين الحين والآخر أن هناك من يعبث بأشيائك.

استدرت إلى أبلة زوبة، وعيناك مخنوقتان بالدموع.

تنهدت أبلة زوبة فى أسى:

- أنا عندى ابن زيك فى الغربة، البكرى من جوزى الأولانى.

ربتت بكفها على الأريكة:

- تعالى اقعدى جنبى.

جلست صامتاً يا «بهلول»

- أنا عرفت كل حاجة عنك، أنتِ متجوزة وفايته أهلك وجوزك سياسى، مش كده؟؟

رمشت يا «بهلول»، عضضت على شفتيك، هممت أن تتكلم، بادرتك:

- هتدى ولادى الصغيرين دروس فى العربى والإنجليزى ماشي؟

هززت رأسك لأسفل يا «بهلول».

وضعت راحتها على ذقنك، **رفعت** وجهك نحوها، التقت عيناك بعينيها الفاحمتين، خفض **صوتها**:

- تعرفى إنك تشبهى ابني؟

رجعت بظهرها كمن تنفض **استسلامها** للحظات ضعفها.

- فيه أوضة بعفشة ميتها، **فضيت** من كام يوم، تحت بير السلم، حازود الأجرة جنيه واحد.

ربتت على كتفك:

- سيبك يا بنتى من **شغل السياسة**، مش جايب همه، واهو جوزك يجى لك فى النور أحسن.

عقدت المفاجأة لسانك يا «**بهلول**».

أردفت أبلة زوبة:

بكرة البت «نجية» تنضفها **وتخليها** عال، هو بسلامته جاى أمتي؟؟

بدأت حبات الملح تتعلق بين **الرمشين**:

- معرفش، مفيش أخبار عنه **فى الجبهة**.

ضمتك إلى صدرها وهى **تنظر إلى** صورة ابنها:

- ربنا يرجعه بالسلامة، **هو والشباب** اللى معاه.

ترام رقم ١٧ تأخر كثيراً، **عليك** أن تنتظر رقم ٢٣ يا «بهلول»، إنه يلف لفة كبيرة، **لكنه يصل** فى النهاية إلى مكان عملك، لكن بخصم التأخير.

تشعلقت على سلم العربة **الأخيرة** وجاهدت بالزق حتى وصلت إلى منتصف الترام، **انحشرت بين** كتلتى لحم، كاد تنفسك يقف، استدرت لمحت الكمسارى **يشق لنفسه** طريقاً.

- تذاكر يا خوانا

ثم يدق بأسفل القلم على **الحامل الخشبي**:

- تذاكر يا فندى انت وهو، تذاكر.

دسستَ رأسك بين أكتاف الواقفين رغم استيائهم، وصلت قرب الباب، نزلتَ فى المحطة وسريعاً ما تشعلقتَ بالعربة الأمامية لتندس وسط العرق المكتوم محاولاً الزوغان قدر الإمكان من عيون الكمسارى.

كان القرش صاغ - وقتها - يعنى لك الكثير، فإن ضاقت - بك - الدنيا وشح الحال، تبتاع به رغيف خبز وتدش بصلة ساداً جوعك.

حين اقترب الكمسارى أكثر من اللازم، قفزت من الأتوبيس قبل محطتك، وأخذتها كعابى، مررت على جدران قديمة عليها بصمات أكف دامية نحاسية اللون، متربة، يشاع عنها، إنها للظاهر «بيبرس»، عرجت على سوق السمك، اجتاحتك رائحة الزفارة المعتادة التى تنفذ تحت جلدك كلما مررت على المكان.

أخيراً، وصلت إلى الزقاق الذى أوله جامع ذو مئذنة صغيرة وآخره، مدرسة الخدمات المسائية.

فناء المدرسة أسمنتى مربع صغير، طابقان من الطوب الأحمر، ليست به أبواب أو شبابيك والسلالم دون درابزين.

أحكمت الكوفية على رقبتك يا «بهلول»، رفعت جوربك الصوفى الذى أعطاك إياه أحمد بعد دخوله الجيش.

التف حولك مجموعة من الأطفال الذين ينتظرون حكاياتك يا «بهلول»، كنت فى نهاية حصة التاريخ تحكى لهم حكايات مبسطة، مرة عن أبو زيد الهلالى، وأخرى عن الزيبق وطارق بن زياد، وسليمان الحلبى إلى آخره من الحواديت التى لا تنتهى.

كان صدرك ينشرح مع نظراتهم المتلهفة وابتساماتهم البريئة رغم شحوب جلودهم وإطلالة الفقر من العيون.

كنت تسمح لهم بعد الدرس بالغناء وأحياناً تغنى معهم.

كانت الطفلة الضئيلة الحجم، ذات الشعر الفاحم والعيون القلقة والحركة التى لا تكف تذكرك بطفولتك يا «بهلول».

ذات نهار، وجدتها تلقى تحية الصباح عليك وفى يدها وردة، اندهشت من أين أتت بها والمكان حول المدرسة طين وبرك.

ضممتها إلى صدرك وقلبها الصغير ينبض ويرقص حناناً.

ـ قلت لك اركعى، بوسى إيدها.

وأبداً لم تركع يا «بهلول»، ولم ترمش عيناك، ظللت صامتاً والصفعات تنهال من الكف الغليظة لأبيك على وجهك لمجرد أنك نسيت بعض الكلمات عند تسميع النشيد، لابد أن تجثو وتطلب الصفح والغفران، فيرضى عنك الرب، هاك هو السبيل الوحيد، لكى تغفر لك معلمتك الراهبة، والمنطق الوحيد الذى يفهمه والدك.

وها أنت تتلقى وردة من بنت صغيرة فى الفصل، تشبهك ويهمس لك حدسك أنها لن تجثو على ركبتيها طالبة الصفح.

ـ يا ساتر.

صوت أجش اقتحم تأملك الجميل للزهرة وجعل الأطفال ينكمشون فى مكاتبهم.

تعرف هذا الصوت جيداً، يأتى فى ميعاد محسوب بالثانية كل أول شهر، صوت ينبعث من جثة ضخمة داخل جلباب واسع وسبحة فى اليد.

ولأن الفصل من غير باب فهو دوماً يباغتك.

هو الرجل «الملك» فى مدرسة الخدمات، وبعده يندرج أى شيء آخر فى المدرسة، فهو المورد الرئيسى للعمالة فيها.

لم تقابل مدير المدرسة غير مرات قلائل يا «بهلول»، كان

قصير القامة، يضع نظارات سميكة تكاد تبتلع وجهه الممتلىء بالبثور.

تذكرت أول سؤال سأله لك:

- هل أرسلك الحاج محمد؟

يكفى أن تكون مبعوثاً من طرفه، كى تتلقى بعض الورقات النقدية هى راتبك الضئيل مخصوم منها إتاوة الحاج محمد كل أول شهر.

حين زرته أول مرة، لم تنجح فى الدخول إلى الحارة التى وصفها لك بعض الناس إلا بالاستعانة بشابين كانا خارجين من أحد المنازل، أزاحا حماراً كان يقف على بابها بالعرض والعربة «الكارو» ملقاة خلفه، مما شجعك على القفز من دائرة الروث إلى الداخل.

بيوت الحارة بلا أرقام، كل بيت مائل على كتف أخيه، كمجموعة من العجائز يستند بعضهم إلى بعض بلا عكاكيز.

سألت يا «بهلول» بعض النسوة القابعات على مدخل دارهن عن بيت الحاج محمد، أشارت إحداهن بسبابتها على المنزل قبل الأخير، صعدت عشر درجات ملتوية من سلم بلا درابزين. تكاد الدرجة الأولى منه أن تلتصق بالباب الخشبى المفتوح نصف ضلفة.

كان جالساً على أريكة مرتفعة عن الأرض، متكئاً بإحدى يديه على مسند قريب وممسكاً باليد الأخرى طرف نرجيلة معلقة فى فمه الذى يتصاعد منه حلقات دخان دائرية، يرتدى جلباباً طويلاً يستر إحدى قدميه ويكشف عن جزء من الساق الأخرى وخلفه نافذة صغيرة على قاعدتها «قلة» ذات غطاء أسود.

لم يكن فى الحجرة الضيقة المربعة الأضلاع غير ثلاث أرائك، تتوسطها منضدة بيضاوية الشكل وحصيرة تبدو مستهلكة تفترش الأرضية، يجلس الحاج محمد السمسار «الملك» كما ينادونه فى الحارة، على الأريكة التى فى منتصف الغرفة والمواجهة للباب الذى دخلت منه يا «بهلول».

توجست خيفة، آه يا «بهلول» لا تزال التشققات فى كعب قدميك تحتك بفرشة حذائك فيلتهب ألمك. وأنت تلهث من مطلع النهار، تصفعك الأبواب، تتبعك الوجوه الشمعية خلف الدرجات الرخامية.

وها أنت أمام الحاج محمد، بعينيه الصقريتين وجسده الضخم وصلعته، تلتمس عمل جديد مقابل مبلغ يختصمه، لا تهمه المؤهلات، دراسية أو جمالية أو حتى خدمة فى البيوت والكباريهات لا يضير. وتضيق روحك فى الغرفة الضيقة وهو يشد النرجيلة ويتجشأ.

- أنت تروحى خدمات، على قد علامك.

اتسعت حدقتا عينيك يا «بهلول»، لكنك صمت بغية الفهم.

صفق، أتى صبى نحيل بجلباب متسخ، أخذ يسوى فحم النرجيلة «ببنسة» فى يده.

خبط الحاج محمد بكفه على رأسه المدلاة:

- شهل واستعجل لنا الشاى.

قزح الصبى الذى لا يتعدى عمره العشر سنوات خارج الحجرة.

رددت متوجساً منه يا «بهلول»:

- مفيش داعى يا حاج.

أشار بطرف النرجيلة، جلست بحذر يا «بهلول» على طرف

أريكة جانبية، لحظة صمت، توغلت فيها عيناك داخل صورة كبيرة الحجم، معلقة على الحائط، ذات برواز سميك، أضلاعها غير متساوية، يبرز منها وجه شديد الشبه بالحاج محمد، لكن يكبره سناً.

أخذ نفساً طويلاً بعد انسحاب الصبى.

نفخ الدخان لأعلى صائحاً:

ـ فيه مكان فى مدرسة خدمات مسائية، المرتب ستاشر جنيه، ليا منهم جنيه كل شهر، قلتى إيه؟؟

هززت رأسك لأسفل، هامساً فى سرك يا «بهلول»:

ـ خدمات، خدمات، صباحية أو مسائية لا تفرق معك، المهم أنك ستعتق من اللف والدوران فى الشوارع والطرق على الأبواب، وفرصة تذهب إلى الجامعة صباحاً وبعد آذان الظهر تذهب إلى المدرسة وترحم عصافير بطنك من النقر على نافوخك الذى سيحته الشمس فى جريك المتواصل تحت عينها الحامية.

كنت تدرس ست وثلاثين حصة فى الأسبوع، أى ست حصص فى اليوم، وكل الذى معك، ثلاثة مدرسين لا غير وأنت رابعهم، وعم عبده الفراش الذى يقوم بعمل كل شيء، بدءً من الشاى حتى مسح السلالم، وغالباً ما يذهب إلى الجمعية ويبيع السكر والأرز للمدرسين بزيادة، وأحياناً يأتى بالكراريس والأقلام وزجاجات الريحة الرخيصة والدخان.

السيد أحمد، مدرس الرياضيات، نحيف العود، ذقنه دائماً طويلة وعيناه غير مستقرتين، لا تفارق العصا يده، تسمع صوته يرج الحوائط ولا يوقفه إلا صوت المؤذن، وهو أيضاً مدرس العلوم، ويمكن أن يحضر بدلاً من مدرسة الألعاب الغائبة إن لزم الأمر.

والأستاذ مدكور مدرس العربى وهو أيضاً مدرس الدين وذو كرش واسع وصلعة تلمع.

وكانت المواد الاجتماعية من نصيبك يا «بهلول»، أما مدرسة الألعاب فلم تكن تراها إلا لماماً، بيضاوية، نحيلة القوام ودوماً عاقدة شعرها للخلف، وهى أيضاً مدرسة الموسيقى والرسم فى الجدول، رغم أنه لا توجد حصص موسيقى أو رسم أصلاً، حتى فناء المدرسة لا يصلح لممارسة أية ألعاب.

أمسكت حقيبتك يا «بهلول»، سحبت منها جنيهاً محشوراً، ضغطت عليه بشدة. قلت للتلاميذ:

- مش عاوزة أسمع صوت لحد ما أرجع.

صاح الأطفال فى نفس واحد:

- حاضر يا أبلة.

وبمجرد أن أعطيتهم ظهرك بدأ الزن والدبيب، وضعت الورقة النقدية فى يد الحاج محمد.

أعطاك ظهره مغمغماً، جاراً ذيل جلبابه على الأرض، كان دائماً مسرعاً، فأمامه المرور على بقية الفصول والمدرسين لأخذ الإتاوة، وإلا الويل كل الويل لمن لا يدفع، فمن لا يطلع بالمعلوم، لقمة عيشه لن تدوم، ويصير الرصيف له مأوى.

الجو غيم، السحب الرمادية تتكاثر، تتجمع.

كوردون من جنود الأمن المركزى يحاوط الجامعة، اعترضك ضابط أمن:

- الكارنيه لو سمحت.

حقيبتك ملأى بالأوراق المحشورة يا «بهلول»، والأقلام والمشط ومناديل متفرقة وخلافه، ناولته الكارنيه، تفحصه، متنقلاً بعينيه بين وجهك والصورة.

- اتفضلى .

مررت حذراً إلى ساحة كلية الآداب المكدسة بالطلاب على غير العادة، تنقلت بين الوجوه، تعرفت على العديد من كليات مختلفة، كنت قد التقيت بهم فى المؤتمرات والمظاهرات (كليات الهندسة والحقوق والتجارة وغيرها....

تكدس الطلاب ينبئ بهبوب عاصفة، تعرف هذا التجمع جيداً، تبدأ الحكايات بمؤتمر طلابى ، كل يدلى ببرنامجه وبيانه، ويبدأ النقاش ويتصاعد بين الجماعات المنتمية لمنظمات مختلفة وتعلو الأصوات بالمطالبة بالإفراج عن المعتقلين السياسيين والحد من غلاء المعيشة وتحسين أحوال الشباب داخل الجامعة وخارجها، ثم تدوى الشعارات ويتفاقم الحماس ويلتف الجميع باختلاف تياراتهم تحت مظلة الشعارات، ويبدأ الزحف داخل أروقة المؤتمرات إلى ساحة الجامعة، يلفون حول المدرجات ومبنى إدارة الجامعة ويهتفون وأحياناً ينجحون فى الخروج إلى الشارع.

وتطلق الأعيرة النارية فى الهواء، ويجرى الجنود بالهراوات وتتشابك الأيدى ويعلو السباب وتسحل الأجساد ويدفس بعضها داخل عربات الأمن.

وحين يفقد الجنود السيطرة على الموقف ينتشر دخان القنابل المسيلة للدموع، وتصوب الطلقات النارية إلى الأجساد البشرية مباشرة بدلاً من الهواء وتمتزج سارينات عربات النجدة بالإسعاف.

مررت بمحاذاة النافورة التى تتوسط ساحة الكلية، اقتربت من مجموعة من الطلاب هم نادية وملك وسعيد ويحيى .

وكانت ملك تتحدث بصوت عال:

– أعلق أنا مجلة الحائط ويقف سعيد معايا، نناقش الطلبة.

لمجك «يحيى» يا «بهلول»، ابتسم نصف ابتسامة، مواصلاً حديثه:

– ونوزع أنا ونادية المنشورات، نشارك بقية الطلاب فى الإعداد لمؤتمر جديد. نظر إليك مردفاً:

– مش كده واللا ايه يا زميلة؟

ابتسمت يا «بهلول»:

– يا عم أنا لسه واصله ويا دوب ألقط نفسى .

استدارت ملك نحوك:

– ايه يا ستى بقالك كام يوم ما بتبانيش.

– ما انتى عارفه، ورايا شغل.

تنمر سعيد كعادته:

– يعنى هو الشغل يعطلك عن الحركة الطلابية يا زميلة؟

تنهدت يا «بهلول» متفادياً النظر إليه:

– والله دا أكل عيشى ، وبعدين ما نا باشتغل معاكم على قد ما أقدر.

احتوتك نادية بذراعيها:

– واحنا ما نستغناش عنك.

أكمل سعيد:

– يا للا يا جميل، ورينا همتك

– مش لما اعرف دورى ، يعنى حا اعلق مجلات الحائط واللا أوزع بيانات، واللا...

قاطعك سعيد:

– حنوضب مقالات نارية أنا وأنتِ وكام زميل على رفع الأسعار والإفراج عن المعتقلين السياسيين و....

هـززت دماغك، ناظراً للنافورة التى توسط الساحة، كانت مياهها عالية عن كل يوم. صوت سعيد لا يزال عالياً، لاحظت أن نظراته تطول نحو نادية وكذلك هى ، تغوص غمازتا وجنتيها وتحمر بشرتها كلما التقت أبصارهما.

كان سعيد فى السنة الثالثة بكلية الآداب، ونادية بالسنة الأولى ، كان والد سعيدمتوفياً، وأمه فلاحة ذات بنيان قوى ، صلبة الروح، تخبز العيش فى فرن بيتهم الواطئ فى إحدى ضواحى المدينة وتربى الطيور وتبيعها من أجل أربعة أولاد.

كان متوسط الطول، قمحى البشرة، يتحكم فى انفعالاته، رغم ما يعتمل فى صدره من تراكمات مكبوتة.

أما نادية، فقليلة الحجم، بيضاء، عيناها ملونتان وشعرها أشقر، تشبه الخواجات رغم أنها آتية من الريف طازة، عفوية الكلام والحركات، والدتها متوفاة منذ أن كانت طفلة، وأبوها متزوج بأخرى ، قصير القامة، حاد الطباع وله جوقة من الأولاد كعادة أهل الريف.

أما «ملك» فكانت فارعة الطول، ذات تكوين عضلى قوى ، عصبية المزاج تثور لأتفه الأسباب، لكنها تحمل قلباً من ذهب فى الإحساس بالآخرين، وهى زميلتك يا «بهلول» فى السنة الثانية بالكلية نفس القسم.

أما يحيى فكان أسود اللون، ذو شعر أكرت، يقطن فى حى شعبى فقير، تولت عماته تربيته منذ الصغر بعد وفاة والديه.

صياح عال، أدار كافة الرؤوس، تحول إلى اشتباك بالأيدى ، وفى سرعة البرق انقلبت الساحة الجامعية إلى تجمع طلابى كبير.

فقد حاول بعض من رجال المباحث المتخفين تمزيق

المجلات، وحين هم الطلاب بمنعهم، أشهر بعضهم المطاوى ، وقامت القيامة ولم تنفض إلا بتدخل أمن الجامعة وبعض الأساتذة.

ثم تكدس العدد الهائل من الطلاب فى مدرج كبير، بشتى اتجاهاتهم الفكرية واختلافاتهم الطبقية وانتماءاتهم لتنظيمات مختلفة.

كانت مجموعتك السياسية تركز بشكل أساسى على التغيير الجذرى للنظام العسكرى القائم، بينما تركز مجموعة سياسية أخرى ذات منهج فكرى مختلف على تحقيق الديمقراطية أولاً، ومجموعة ثالثة تنادى بحل توفيقى بين المنهجين.

ودوماً كانت الاختلافات تأتى من الصراع والسرية، لكنهم كانوا يلتقون جميعاً على حد أدنى من الشعارات والمفاهيم لا يحيدون عنها.

- حق التظاهر والإضراب والاعتصام.

- وقف الحبس الاحتياطى والإفراج عن المعتقلين السياسيين.

وقف حالة اللاسلم واللاحرب.

وبدأت الأصوات تعلو والمشاحنات تحتد وكل من المجموعات الطلابية ذات الهويات السياسية المختلفة محتفظة بحقها الوحيد فى الرؤية والتكتيك، ثم علت الشعارات فى محاولة لضم تلك الاختلافات تحت سقف واحد، وللتذكير أنهم أمام خطر واحد.

«عاش كفاح الشعب المصري»

«عاش كفاح الطبقة العاملة»

«لا انهازية ولا استسلام»

«يا حرية فينك فينك، حطوا السجن ما بينى وبينك»

وانشقت الأرض، لتخرج منها مظاهرة ضخمة، دارت داخل الجامعة ثم اخترقت أسوارها رغم المحاولات المتنوعة للأمن، وقبل الوصول إلى الميدان، تراصت العربات المصفحة للجيش على جانبى الطريق، وهرع جنود الأمن المركزى بهراواتهم يضربون بعشوائية فى أى اتجاه، لا يفرقون بين طالب ومواطن عادى أو أطفال أو نساء يمرون بالصدفة.

وأطلقت الأعيرة النارية والقنابل المسيلة للدموع، وسحل كل من تقع عليه أيديهم وكل من يحاول المقاومة، وحشرهم عنوة داخل العربات الجيب المصفحة.

وبدأت الجموع تتفرق.

كدت تختنق يا «بهلول»، ظللت تجرى وتجرى متفادياً الضرب والدخان وخلفك نادية وسعيد؛ تعثرت سترتك فى سلك شائك، لحق بك سعيد، خلصك من السلك بعد أن مزق قطعة من سترتك الصوف عند الكتف.

احتميتما فى مدخل عمارة، طرق سعيد باب طالته يده، لم يفتح أحد، طرق على باب آخر، خرج منه شخص ضخم الجثة يرتدى بيجامة مخططة، جهر بصوته وهدد أن يحضر لكم بوليس النجدة إن لم تغادروا العمارة، ولم يكن يسمح لأحد منكم بالكلام أو الاقتراب وكأنه يخشى الإصابة بالجرب.

لم يعد هناك مفر من مواصلة الجرى .

جريتم ودخلتم الحوارى والأزقة، انتابك دوار خفيف يا «بهلول» على ناصية حارة، تحاملت على نفسك، ومشيت فى شارعها الضيق، ومن التعب أسندت ظهرك على واجهة محل

كشرى ، هرع صبى يعمل فيه بإحضار كوب ماء.

التقطت أنفاسك بعد تجرعه بالكامل يا «بهلول».

أتاك الصبى بكرسى خارج المحل، ناولته الكوب ممتناً.

كان الصبى نحيفاً، يرتدى فوق ملابسه مريلة متسخة، ذو عينين سوداوين ضيقتين، تنتشر البقع البيضاء على بشرته بشكل ملحوظ.

أسندت نادية يديها على ظهر كرسيك، بينما وقف سعيد يرقب بعينين متوترتين المارين فى الحارة.

تنقل الصبى ببصره بينكم، صاح:

- انتو بتوع المظاهرات، بتجروا من العساكر! ولا يهمكم، الواحد يبخ فيهم، يكشوا ويعملوها على روحهم.

ضحك فضحكتم معه ضحكات متقطعة مترقبة.

قطع الضحك صوت من داخل المحل:

- يا سيد، بتعمل ايه عندك يااد، شهل وشوف اللى وراك أحسن لك.

هرول الصبى إلى داخل المحل والكوب الفارغ يهتز فى يده.

عاودتم الجرى ، حتى وصلتم قرب نهاية الحارة، وعلى مرمى البصر، فى تفريعة منها، رأيتم بعض الجنود قادمون الكمامات على وجوههم والهراوات فى أيديهم.

انعطفتم على أقرب بيت قديم.

صاح سعيد:

- من هنا بسرعة.

كان مدخل البيت واطئاً، دخلتم محنيين، صعدتم خلف بعضكم، سلالم خشبية متعرجة، وطرقتم أول باب صادفتوه.

وارب رجل فى منتصف العمر الباب بحذر، دارت عيناه

بينكم:

- ادخلوا بسرعة.

وكأنكم ما صدقتم، هرولتم إلى الداخل بسرعة، كان الرجل بديناً بعض الشيء، يرتدى بيجامة مخططة، أحكم شد الترباس من الداخل.

واجهتك صورة العذراء على الحائط مباشرة يا «بهلول».

صاح الرجل بتودد:

- اتفضلى يا بنتى .

خرجت من تأملك للعذراء ودخلت إلى الصالة حيث سبقك زملاؤك وجلسوا بين رجل مسن يرتدى جلباباً فضفاضاً ويتكئ بكلتا يديه على رأس عصا خشبية، وامرأة معقوصة الشعر، ملامحها هادئة وعيناها عسليتان، وفتاة مراهقة بيضاء ذات عيون ملونة، خليط من الأخضر والذهبى .

جرى الرجل البدين يراقب الشارع من بين فتحات الشيش.

صاحت المرأة المعقوصة الشعر وهى تنتقل ببصرها بينكم:

- احنا سامعين عن المظاهرات من الصبح.

ارتبك صوتها وهى تنظر لسعيد وإليك ونادية:

- لكن انتوا فيكم بنات و..

قاطعها الرجل المسن خابطاً بعصاه على الأرض:

- جرى ايه يا «تريزا» انت نسيتى والا ايه، مش قلت لك ألف مرة إنى وأنا باهتف فى مظاهرات سعد باشا كان معانا بنات.

أطلت عيناه مع ابتسامته الخالية من الأسنان، متوجهاً ببصره نحوك ونادية يا «بهلول»، قال متمايلاً مع عصاه:

- وبعدين دول بنات زى الورد .

أطرقت تريزا رأسها خجلة:

- ربنا يحميهم ويبعد عنهم ولاد الحرام.
صاح الرجل البدين خلف الشيش:
- دول بيدخلوا بيت بيت، يظهر بيدوروا على حد مهم، أهم هناك.
التصقت عيناه بالشيش.
استدار الرجل المسن صائحاً بلهجة حادة:
- «ألبير»، تعال هنا، اقعد، بلاش خيابة، حيعملوا ايه يعني؟؟
استمر ألبير فى البحلقة خلف الشيش:
- وصلوا لآخر الشارع، الضابط بيزعق فى العساكر، يا خبر أبيض، دول لموهم فى البوكس، يظهر جت لهم أوامر من وفوق، آهو البوكس اتحرك و...
دق العجوز بعصاه على الأرض بشدة:
- ألبير، قلت لك تعال هنا.
استدار ألبير، مطأطأ الرأس:
- لا مؤاخذة، أصل
أردف العجوز:
- همى يا مريم، اعملى لهم شاي
جلس ألبير على المقعد المواجه لأبيه:
- شاى ايه ياوالدى ، تلاقيهم على لحم بطنهم من الصبح.
نظر لامرأته:
- نعمل لهم أكله ترم عضمهم.
صاحت نادية:
- احنا متشكرين.
واصل سعيد:
- أصلنا مستعجلين، بدنا نطمن على زمايلنا ويا دوب نلحق

نمشى قبل ما يكبسوا على الحارة من جديد.
وقفت يا «بهلول»، وقفت نادية بعدك، أردف سعيد وهو يهم بالوقوف:
– وبعدين كفاية مقابلتكم الحلوة دى .
صاح العجوز:
– طب شوفى لهم حاجة ساقعة أو عصير، همى أنتِ وأمك، جاتكم خابط فى نافوخكم، نسوان زى قلتها.
جرت مريم الفتاة المراهقة وخلفها «تريزا» الأم إلى المطبخ.
وفى أقل من خمس دقائق، خرجت مريم وعلى يديها صينية مليئة بأكواب من عصير البرتقال.
صمم ألبير:
– ما تخلونيش أحلف.
تجرعتم العصير سريعاً متمتمين بالشكر.
مددتم أياديكم مصافحين العجوز والمرأة «تريزا» وابنتها مريم الحلوة، وألبير الذى سبقكم على السلم، مد رأسه خارج المدخل ثم استدار صائحاً:
– فى سلامة الله، خلوا بالكم من نفسكم والرب يرعاكم.
نزلتم السلم مسرعين يا «بهلول»، تسبقكم أقدامكم.
أسرعتم الخطى خلف بعضكم فى الشارع الضيق، وعند أول منعطف، تصافحتم على وعد لقاء جديد.

الفصل الرابع

إلى الجدران الضيقة التى تؤويك خارج الزمن عدت يا «بهلول».

ألقيت جسدك المنهك على السرير، عيناك مبحلقتان فى السقف الناشع والجير المتساقط أين المفر يا «بهلول» والحجرة التى حظيت بها من أبلة زوبة تحت بئر السلم محاصرة بالمناور، ضيقة، رطبة، وشباكها الوحيد تعلوه الأسوار الصدئة ومنضدة متآكلة خشبها أصفر وركن صغير للأدوات المطبخية والحمام.

حتى سريرك، ملجأك من شقاء العالم، تخشى أن تغوص فى ملته الهابطة فلا تقوم لك قيامة.

تقلبت على بطنك برفق، احتضنت الوسادة.

- يا جميل، يا مقلوظ، غزال والله..

أسرعت فى مشية عسكرية، نافخاً فى غيظ يا «بهلول»، اقترب أكثر، بدا ظله يكبر على الأسفلت، تحت عمود النور، على بعد خطوات منه بيت «أبلة زوبة».

كاد أن يلامسك، فاستدرت وكفك يسبقك.

- انت مش ناوى تجيبها البر يا جدع انت!

تسمرت من المفاجأة:

- أحمد

قلتها أثناء نزول ذراعك باسترخاء، تنفست بعمق، وأنت تحتوى وجهه الأسمر وعينيه السوداوين وبزته العسكرية.

خبط على كتفك بيد خشنة:

- لا، ما يتخافش عليك لوحدك ياد.

تأبطت ذراعه

- أجازة؟

- بالعافية.

وما هى إلا خطوتين حتى توقف

- تيجى تروح سينما؟

هكذا هو مثل موج البحر عهدته يا «بهلول» ينفعل، يهدأ سريعاً، يكتئب، يفرح، يبكى ، يغضب فى لحظات، وأحياناً تفور تلك المشاعر، فلا ينفع وقتها إلا الصمت، أو الانفلات من أسر اللحظة حتى يهدأ.

كل هذا يهون أمام رغبته الشبقية فيك يا «بهلول» لا بد أن تذهب معه إلى السينما، وفى مقعدين فى مؤخرة الصالة المظلمة، يضمك إليه، يتحسسك، يقتنص قبلات، يرفع الجيبة حتى أعلى فخذيك، يفك سوستة بنطلونه الميرى ويصر أن تضغط بيدك إلى أن تلتهب مشاعره، وعلى السرير ذى الملة الهابطة يا «بهلول» تكملان فيلمكما المثير حتى تصلا معاً إلى الذروة.

ولأن أجازته غير متوقعة، لم تعمل حسابك على حق الدخان، زوج الجنيهات التى تدخرهما عند نزوله،

- هيه، قلتى ايه؟؟

خفضت وجهك، حككت تراب الشارع بمقدمة حذائك يا «بهلول» سارحاً مع نفسك، هى فوران الرغبة الصبيانية لديه تعرفها، لكن كيف السبيل؟

سبقك بخطوات

- يا للا نروح، باين عليها أجازة قرديحي

- استنى فيه درس عند «أم بهاء» ليا فلوس درسين عندهم، يمكن...

- ادينى مفتاح الأوضة، حاسبقك على هناك

ناولته المفتاح يا «بهلول»، أردف:

- حاخدلى تعسيلة على ما تخلصى .

رمقته حتى انعطف بخطى وئيدة فى الاتجاه المعاكس.

أفقت من غفوتك يا «بهلول» على بصيص ضوء يأتى من خلف الشباك، قمت حافى القدمين، أضأت النور، فغمر الحجرة ضوء أصفر، باهت، طالما اشتهيت تغييره وفى كل مرة تأتى الفلوس، تغطى الديون على النوتة أولاً ثم الأكل والإيجار وسلامتك وتعيش.

انتعلت شبشبك، وضعت الفوطة على كتفيك، فتحت صنبور الماء على رأسك.

أتاك طرق خفيف مع اندفاع المياه، ازداد الطرق وأنت تشطف دماغك من الصابون.

- دقيقة، دقيقة يا للى بتخبط

ازداد الطرق، دفست شعرك داخل الفوطة، مسحت الصابون العالق على أذنيك ورقبتك.

مرق الطارقون إلى الداخل، متلفتين حول أنفسهم، وكأن هناك من يتبعهم، وفى كل مرة يكتشفون أن لا أحد يتبعهم غير المخبر «أبو شنب» القابع على رأس الطريق، نحيف، أحدب، مصفر الوجه، يعلو شاربه حتى منتصف وجنتيه، لا يهش ولا ينش وأحياناً يأخذ حسنته من الناس، يبعثونه فى مشوار، يستدلون منه على ذويهم فى القسم، يستخدمونه فى الحصول على شهود

غير أنه قادر على التلون حسب الحاجة، حين تداهم المنطقة كبسة، وينتشر الضباط، يتحول إلى قرد وحشى ، يحمل فى يده عصا جريد يلسع بها ظهور الغلابة.

وحين تهدأ الأمور، يستعطف الناس من جديد، تعطيه أبلة «زوبة» ما فيه النصيب، وأحياناً تنقلب ضده، فتطرده من أمام المنزل والرصيف الذى يقف عليه.

أما بالنسبة لك يا «بهلول» فلم يعد لديه جديد يقوله فى تقريره عنك غير تلك الوجوه التى تحفظها المباحث جيداً، ويأتونك فى أوقات متفرقة، وأغلبهم من الجامعة، والمباحث وأمن الدولة يعرفان أين يقطنون هم وأهاليهم والذين خلفوا أهاليهم أيضاً.

كان يتبعك خطوة بخطوة فى البداية، ومع الوقت أضحى يتكاسل ويمل، من مشاويرك المحفوظة.

وحين يلتقى بوجهك أو بوجه أحد من الذين يأتونك يبربش بعينيه ويخفض رأسه.

فردت الفوطة على ظهر الكرسى واستدرت إلى ركن المطبخ، أشعلت الوابور، فتحت الصنبور على براد الشاى ، أحكمت وضعه فوق الوابور بعد أن ازرق اللهب، وجدل الرفاق الذى يتناثر على أذنيك، يعوقه الوش، فلا يصلك إلا فى شكل كلمات متقاطعة.

صببت أكواب الشاى وأنت لم تزل صامتاً يا بهلول.

أفسحت لك نادية مكاناً، جلست وأنت تنصت وأنت ترشف كوب الشاى كى «تنعدل طاسة» دماغك أمام ما أنت مقدم عليه من جدل ومناقشات تعرفها حق المعرفة وتدعو من قلبك ألا تصل إلى حد المشاحنات.

وضع «أبو مسعد» نظارته على المنضدة بعصبية مكملاً حديثه.

– حتروح نادية تتقصى الأخبار وتشوف بتوع هندسة عاملين ايه؟؟

ردت نادية بعفوية:

– مش الأحسن نجتمع معاهم ونسألهم بدل التجسس.

صاح أبو مسعد بعصبية:

– اسحبى كلمة «تجسس» يا زميلة.

زامت نادية، شوحت بذراعها:

– اف، سحبتها خلاص.

أردف:

– انت بتعملى عمل وطنى شريف، السياسة مناورة، يعنى تطلعى على تكتيكاتهم الجاية وبياناتهم، وبعدين نشوف ايه نتفق فيه معاهم وايه نرفضه.

هزت نادية رأسها لأسفل، أسندت ظهرها على الحائط:

– آه يانى ، من الصبح بلف لما اتهد حيلى .

خلع سعيد حذائه، هزه، اندفع الرمل تلالاً صغيرة، أما يحيى وملك، فكانا مكومين على طرف السرير فى حديث جانبى .

مط أبو مسعد شفتيه، دار بعينيه فيما بينهم زافراً، كمن خاب أمله فى الجلسة.

رشفت الشاى يا بهلول متأملاً إياه، لم تكن تعرف غير اسمه الحركى ، ودوماً فى الاجتماعات القليلة معه تجده عبوساً، كلماته تلغرافية، لا يعطى فرصة لتساؤل أو تحليل، ومن يعترض أو يبدى رأياً مختلفاً، فهو برجوازى ، خائن أو منحرف عن السياق.

وكانت الجملة التى لا تفارقه وأضحت «لزمة» فى لسانه هى «الثورة بعد بكره يا زميل»، ومر بكره وبعد بكره وبعد بعده ولا زلت تنتظر يا بهلول.

كان أسمر اللون، مائلاً للسواد، نحيلاً طويل القامة، يضع نظارات طبية سميكة الزجاج ودوماً يميل إلى ارتداء الألوان الداكنة.

بعد أن فرغ الجميع من احتساء الشاى ، تنبهوا لصوته الحاد:

- عاوزين نقيم اللى حصل النهارده، بعدها نحط جدول أعمالنا المقبلة.

أخرج من جيب سترته بعض الأوراق المطوية فردها على المنضدة.

رفع سعيد يده.

هز أبو مسعد رأسه.

- أيوه يا رفيق سعيد

- احنا لازم نحضر لمؤتمر كبير غير اللى باظ النهارده ونجمع توقيعات من جميع الحاضرين على بيانات و...

قاطعه يحيي:

- لكن يا رفيق سعيد، لازم قبل المؤتمر نعمل اجتماعات صغيرة مع الطلبة فى الكليات المختلفة ونوصل معاهم لصيغة مشتركة.

خرجت من سكاتك يا بهلول، كنت دوماً ترتبك، حين يكون أبو مسعد فى جلسة ما، لم تكن تحبه، لكن اليوم انفكت عقدة لسانك، قلت وأنت متجاهل النظر إليه:

- هى المسألة كلام وخلاص، قبل المؤتمر والبيانات

والتوقيعات وخلافه، مافكرتوش فى الناس وأهمية التواصل معاهم.

قاطعك أبو مسعد:

- المهم دلوقت الطلبة، دول طليعة الحركة.

عدت إلى صمتك يا بهلول، زافراً نفساً طويلاً، كان ينصب من نفسه قائداً على الجميع، شعرت شعوراً مريراً بأنك واحد من قطيع يمشى خلفه، حتى أحمد كان يستحثك أن تطيعه باعتباره أكثر خبرة منك، ولأنه وأمثاله قادرون على أن يقولوا للشيء «كن فيكون».

قالت ملك:

- دلوقت انتوا بتتكلموا عن بيانات ونشرات وجداول أعمال ومفيش فلوس.

بادر أبو مسعد بالرد:

- لموا من بعضكم، لحد ما ابلغ الناس اللى فوق.

رد سعيد وهو يخرج جيوب بنطلونه:

- أنا الحمد لله جيوبى أنضف من الصينى بعد غسيله.

وسرسعت نادية:

- والله أنا مصروفى خلص، وابويا كل شوية يقول لى انامش قاعد لك على بنك.

ضحكت فى سرك يا بهلول، ليس لديك مصروف من بابه، أو بيت أسرة يأويك، وعليك أن تعمل وتعمل بأقل القليل، بالقدر الذى يكفى المأكل ودفع الإيجار بالكاد.

نظر يحيى فى ساعته صائحاً:

- ياه.. دانا وريا ميعاد مهم، ياللا يا ملك.

وقفت ملك على أهبة الاستعداد، سلمت عليك سريعاً يا

بهلول وفى ثوان كانت ويحيى عند الباب. قال يحيي:

- بالإذن يا رفيق أبو مسعد، انت عارف أهمية المواعيد.

انشغل سعيد بارتداء حذائه، وساعدتك نادية فى لم أكواب الشاى الفارغة.

طرق أبو مسعد بأصابعه على المنضدة طرقاً منتظماً.

- حابقى اتصل بك يا سعيد وابلغك بالاجتماع الجاى.

هز سعيد رأسه:

- ماشى يا رفيق.

اتجه أبو مسعد ببصره حيث أنت ونادية يا بهلول واقفتان بجوار الحوض.

نظر إلى ساعته:

- أنا مضطر أمشى، سعيد حيبلغكم بالميعاد الجاى.

اكتفيت بهز رأسك يا بهلول، بينما ردت نادية:

- أوكيه يا رفيق.

استدار نحو الباب، واربه، شاخصاً بعينه خارجه، ثم انسل إلى الخارج مخلفاً طرقعة قوية خلفه.

- ياللا بينا يا نادية، ألحق أوصلك

صاح سعيد بعد أن فرغ من ارتداء حذائه، رددت يا بهلول:

- خليكوا شويه، لسه بدري

صاحت نادية:

- بدرى من عمرك، زمان أمى بتصوت وابويا ماسك فى خناقها.

قبلتها يا بهلول، شددت على يد سعيد، أوصلتهما حتى الباب، إلى أن غابا عن أنظارك، تاركين مساحة للوحدة كى تنفرد - بك - فى الليل الطويل.

فى الصباح الباكر، وكما هى عادتك يا بهلول، يأخذك الحنين إلى صدر أحمد الدافئ وطنك وملجأك حين تدور بك الدوائر ويمزقك الشوق إلى صغيرك.

تلقيك قدماك أمام شبابيك الانتظار خلف أسوار حديدية.

تقرأ المرة تلو المرة، الأسماء المعلقة فى الكشوف.

تدور عيناك بين الأسرى والمفقودين والشهداء، تغمضهما يأساً وبؤساً.

وينتهى بك المطاف، بقدميك الكليلتين إلى بيت أمك، ربما يكون قد بعث بمرسال، أو ورقة صغيرة مع أحد الجنود، ربما اتصل هاتفياً عند أهلك، فقد أعطيته الرقم للضرورة، ربما، ربما، إنك فى عرض أى أمل، أى خبر يبل الريق يا بهلول.

الوجوم يعتلى وجه أمك، ما إن التقت عيناكما حتى هرعت إلى المطبخ وجرى أخوك فى اتجاه الحمام وصوت أبوك يعلو من الداخل:

- مين اللى على الباب؟

دخلت المطبخ خلف أمك يا بهلول، قلت:

- فيه أخبار عن أحمد؟ حد اتصل بالتليفون؟

اصطكاك الأبواب والأطباق الفارغة يعلو فوق صوتها المتلعثم وعيناها أبداً لا تنظران نحوك.

خلعت حذاءك يا بهلول، جلست على كرسى المطبخ، قضمت إصبع محشى .

صوت أبيك لا يزال يجلجل، هرعت أمك إليه لإسكاته، يزداد صوته علواً ولهجته عصبية:

- محدش يقول لها لتعمل فى روحها حاجة.

لم تكمل القضمات يا بهلول، استشعرت بحدسك الفطرى أن

هنالك شيئاً ما غير طبيعى .

هـرعت إلـى أخيك الذى مـا إن رآك حتى جـرى إلى الصـالـة، جريت خلفه، توراى عنك بوجهه، وقفت قبالته، أضحى حـد العين فى العين.

- هو فين؟

- ....

سقط قلبك فى قدميك يا بهلول، طفر الدمع من عينيك.

- مات!!!

رمش:

- لأ، انصاب.

أطبقت بكفيك على كتفيه:

- ازاي؟ فين؟ انطق.

حضرت أمك على صوتك، أمسكت ذراعك، دفعتها عنك.

هززت أخيك الواجم:

- فين؟ انطق.

- المستشفى العسكرى .

هـرعت علـى عتبة البـاب، ابتلعت قدماك السـلالم، وصوت أمك يتبعك:

- استنى خدى أخوك معاك.

العـربـات المـصـفـحـة تـدور حول المـسـتـشـفـى العـسكرى ، تتقاطر الدماء من أبوابها الخلفية على الإسفلت الساخن؛ الأطباء والجنود متفرقين، مبعثرين بين الأبواب والـردهات والحمـالات الخشبية معبأة بأكوام اللحم المشظى .

الكل فى حركة دائبة، وعيناك تدوران يا بهلول، تفتش بين الوجوه والأفرولات الميرى المدماة عن عينين متسعتين دافئتين،

مستا قلبك ذات يوم فلم يهدأ.

المصابيح المتفرقة مدلاة من السقف، النوافذ الزرقاء مغلقة، مررت لاهثاً بين الحمالات والأسرة، تدافعت على السلالم بين الألوان الكاكى والكتل السوداء، تتبعت رائحته فى العنابر حتى وصلت إلى ركن منزو فى نهاية عنبر عطن.

سمعته يئن أنيناً متقطعاً، ثم يروح فى غيبوبة، ويعاود الأنين المذبوح الذى يشطر قلبك نصفين، بين اندفاعك المجنون لضمه وبكاءك على جسده المشظى.

آه.. عمرك كله تلقيه تحت قدميه، تبعثره، تقطعه، لتزرع له ألف ساق على ساقه التى أكلتها النار.

فردت يدك على جبينه، حنيناً وحناناً، وعيناك أنهار مالحة لا توقف نزيف القلب.

مس صوته الواهن هسيس روحك المطفأة:

- بهلول..

ثم راح فى غيبوبة جديدة.

قربت أذنك من وجهه المبثور شظايا، كانت الضمادات على عينيه تحجب بريق القلب المشتعل فى عيونكما.

تلفت حولك، الممرضات يذبن وسط الجنود والأهالى الملتاعين.

ناديت على إحداهن:

- من فضلك يا..

لم ترد عليك، قمت، أمسكت بكتف واحدة، صحت:

- هو ها يفوق إمتي؟

أشرت إلى مكانه، مشت معك قليلاً، قرأت سطوراً فى ورقة معلقة على حديد السرير، نظرت إلى ساعتها دون التفات إليك:

- قدامه تلت ساعة تقريباً، اتفضلى استنيه بره.

كانت سمراء، غائرة العينين ضئيلة الحجم. رددت يا بهلول مشاوراً بظهر كفك على فمك:

- أنا هاقف هنا، مش هاانطق.

أدارت لك ظهرها غير عابئة بك.

بعروقك النافرة قبضت على حديد السرير، قاضماً حزنك.

تلفت حولك، وقع بصرك على فردتى بيادة تحت السرير.

نظرت لأعلى قليلاً، بهت، كان الوجه مشوهاً، والساقان مبتورتان، وامرأة فى الثلاثينيات تجلس على طرف السرير، تبكى فى صمت، شجية الملامح، تغطى شعرها بإيشارب أسود، وترتدى عباءة طويلة تلم جسدها الممتلئ نسبياً، وبنتاً وولداً تجاوزا العاشرة، واقفان متلاصقان مذهولان خلف حديد السرير.

أشحت ببصرك على الجهة المقابلة، رأيت حفرتين عميقتين مكان العينين، وذراعاً مفصولاً عند الكتف.

عجلات النقالات تدهس قلبك الموجوع، كتل متفحمة ملفوفة فى بطاطين يتبعها عويل وخطى لاهثة تسابق العجلات.

جنود يزعقون، وأطباء يهرول خلفهم ممرضين وممرضات بالمحاليل والقطن المعقم.

الوقت... لا توجد إشارة للوقت.

فتشت بعينيك عن ساعة معلقة، لم تجد إلا حوائط عالية ونشع وخيوط عنكبوتية فى الزوايا المعتمة.

جلست بحذر على طرف السرير، ينفطر قلبك شوقاً وحنيناً تتذكر عريكما المغسول بماء المطر، وقفزكما فى الساحات للإمساك بالقمر، تتحسس كفه الخشنة المشظاة، ويغيب عنك

دفء عينيه خلف الضمادة اللعينة.

تمسكك الرعشة، يسقط دوارك الخفيف على فراغ الساق، ينشرخ قلبك داخل وحدتك الزجاجية. كان المطر يسقط بشدة فى الخارج، رذاذه يطرق طرقاً خفيفاً منتظماً على الزجاج. المصباح يتأرجح، الضوء واه، الملابس مبعثرة. تدفس وجهك فى صدره، تعشق رائحته الأليفة، تميزها بين آلاف البشر.

آه.. يا بهلول من ذلك العشق، تنتفض روحك متأججة بالنشوة، وتتدفق شهوتك

الجيبة على ظهر الكرسى ، البلوزة مقلوبة، حمالة الصدر ملقاة على المنضدة، والأفرول الميرى معلق على مسمار. البطانية مدلاة على الأرض، فوقها فانلة ولباس داخلى .

تسلل آذان الفجر من تحت حواف النافذة، نفذ بينك وبينه، وكنتما قد اكتفيتما، وعرقكما لم يزل مبللاً.

انتفض أحمد واقفاً، أدخل رأسه داخل الفانلة، رفع لباسه المقلوب، وقبل انتهاء المؤذن كان قد ارتدى ملابسه، وبجسدك المبلل بالنشوة وعينيك الناعستين أسندت ظهرك على الحائط:

– أحضر لك كباية شاي؟

– مفيش وقت، لازم ألحق الطابور.

صاح وهو يقفز بين الملابس والمقاعد المبعثرة متجهاً إلى باب الشقة.

جريت عارياً خلفه:

– استنى .

طبع قبلة سريعة على خدك، جرى يتبعه صدى أقدامه المتلاحقة تاركاً لك رائحته المألوفة تداعب جفنيك.

ترفع البطانية، تلفها حول جسدك المرتعش يا بهلول، وتروح فى سبات عميق.

أفقت من شرودك على صوت الحكيمة خلفها ممرضة صغيرة السن، تدفع عجلات منضدة معدنية فوقها لفافات قطن وشاش ومقصات صغيرة وبرطمانات زجاجية ليس لك عهد بها.

صاحت الحكيمة بلهجة آمرة:

– وسعى يا مدام، عايزين نغير له.

أزاحت الغطاء مردفة:

– يا ستى الدكتور على وصول، مش عايزين دوشة.

قمت من مكانك، تراجعت خطوات دون أن تنبس بكلمة.

نظرت حولك، وجدت العنبر شبه فارغ من الزائرين، يبدو أنك لم تنتبه أن مواعيد الزيارة انتهت ولم ينتبه إليك أحد.

أمسكت الممرضة برطماناً داخله سائل شفاف، وضعت فيه الحكيمة ذات التقاطيع الحادة والسمرة الداكنة ساقاً معدنية ملفوفاً على مقدمتها قطعة قطن صغيرة.

وضعت الممرضة قمحية اللون، الضئيلة الحجم، ذات العينين البندقيتين الدائريتين، البرطمان المفتوح على المنضدة المعدنية، أمسكت ما تبقى من ساق أحمد، خلعت عنه الشاش، وقبل أن تبدأ الحكيمة بوضع القطن المغموس فى السائل على الجرح استدارت نحوك:

– انتى لسه هنا؟ اتفضلى ما تجيبيش لنا الكلام.

أعطيتها ظهرك يا بهلول، وصرخات أحمد أثناء تنظيف جرحه تتبعك.

جريت، ابتلعت السلالم صراخك المكتوم، حتى وصلت إلى ممر طويل يقودك إلى باب الخروج.

رائحة القطن المعقم، وصرير عجلات النقالات يتبعانك حتى الشارع، حيث عربات الإسعاف وعربات الميرى معبأة بمصابين جدد.

تقف على الجانب المقابل للمستشفى العسكرى ، تنتظر الأتوبيس الذى يقلك لدارك الموحشة.

مررت بعينيك على النوافذ الزرقاء، توقفت عند آخر نافذة، حيث يرقد أحمد تحتها فى نهاية العنبر، وجدتها تفتح ويخرج منها ضوء أبيض شفاف، يطير أحمد منها فارداً جناحيه، وساقيه الجميلتين تطوحان فى الهواء الذى يملأ جلبابه الأبيض، يرفعه لأعلى ويبتسم لك حبيبك بعينيه البراقتين.

تطلق المدافع تحيتها، وتدوى الصواريخ الملونة فى السماء، يخرج المصابين من المستشفى متعانقين، يلوح الأطباء والممرضات لهم من خلف الشبابيك، تختفى عربات الإسعاف والعربات الميرى وقطرات الدم على الإسفلت.

يقترب أحمد منك، يمد لك يديه، تمتد ذراعيك، يرفعك معه إلى فوق، يعانقك، يصفق الناس والأطباء خلف الشبابيك، يطير بك متجاوزاً السماوات السبع حيث الفضاء اللانهائى .

سارينة الأتوبيس تخترق دماغك يا بهلول، تجرى لتلحق به، ترتمى على أول مقعد يصادفك، واضعاً يدك على قلبك/ حلمك المنكسر تحت العجلات.



الفصل الخامس

الممر سرداب موحش.

الحجرة فراغ.

وحدها/ وحدك، وحائط الانتظار ثالثكما. رائحة أحمد فى كل ركن فيها، هنا كان يرفعك لأعلى ويدور بك، هنا كان يقفز معك على الفراش، هنا كان يضع رأسه تحت الماء البارد فى الفجر كى يلحق بطابور التمام، هنا كنت تنتظره تحت النافذة مع شريط الضوء الآتى من بعيد وأول خطوة تدب على الطريق.

تحت الملابس المكومة فى الدولاب العتيق «زوج» الجنيهات التى كنت تدخرهما من فلوسك القليلة (حق الدخان) حين ينزل إجازة.

وعلى السرير الضيق، كان يضع رأسه على بطنك، مترقباً دقات قلب صغيرك/ جنينك، هو تمنى بنتاً سمراء وأنت تمنيت ولداً يشبهه.

الشوق مخنوق فى صدرك يا «بهلول»، حتى الفئران الوليدة ما عادت تلعب وتؤنس وحدتك فى غيابه.

آه.. ظللت تعد الأيام، يذوب حذاؤك وترقعه، تأكل يوم وتجوع عشرة، تسهر، تذاكر، تخرج إلى المظاهرات، تتعدد أشغالك، تقبل أعمالاً بسيطة وأحياناً حقيرة، وتحصل على أثمان بخسة لا تساوى جهدك وتصبر وتجتهد وتنجح فى دراستك وتلتصق بصدر أحمد حتى أضحيتما واحداً.

كنت تنتظر اليوم الذى تنتهى فيه خدمته العسكرية بفارغ الصبر، ليخفف عنك عبء الأيام وتحملان «القفة» سوياً.

وها أنت تحملها وحدك، فوق ظهرك المحنى ، وانتهت خدمته العسكرية ولم تنته الحرب، يتراءى لك وجهه المطفأ، يتوارى بريق عينيه، وتتبدل رائحة الألفة بالقطن المعقم.

نظرت إلى السقف الناشع، صرخت:

- يا الله.. يا بتاع الغلابة.

اللطمة تعصف بعمرك كله، شابت أوراق عشقك، والحجرة تزداد ضيقاً وعتامة، تصغر، تتكمش، تتكور فى ركن منها، مترقباً صباحاً جديداً.

خرجت من وحشتك على طرق شديد والليل لم يزل فى منتصفه.

الطرق يزداد، قمت متثاقلاً، فتحت الباب، اندفعت إلى الداخل، ألقت بنفسها على الفراش باكية، أمسكت كتفيها، هززتها، استدارت بوجهها الشاحب نحوك، سألتها:

- مالك، وإيه اللى جابك الساعة دي؟

استفزك بكاؤها اللامتواصل:

- انطقى .

لم تنطق، تلك الفتاة السمراء الطويلة، الطالبة فى معهد متوسط، وجارة نادية فى الحى .

قالت عنها نادية ذات مرة، أنها تملك حس فطرى عال بحركة الحياة السياسية، وييجى منها لو اشتغلت معانا.

لم ترها يا بهلول إلا قليلاً، فى كافيتريا الكلية، جالسة مع «يحيي» تتقاسم الحديث والضحك معه، وأحياناً متأبطة ذراع نادية، ومرة وحيدة أتت معها «ملك» إلى البيت، ولم يمكثا إلا

قليلاً، وكانت أغلب الوقت صامتة، تستمع إلى أبجديات حياة مختلفة مبهرة.

اسمها، اسمها، فركتَ شعر رأسك يا بهلول، اسمها، آه.. «إنصاف»، إنصاف، لكن أى ريح سوداء قذفتها عليك هذا المساء؟

دخل بكاؤها فى طور النشيج، لم تحتمل أعصابك.

أمسكت برأسها تهزه.

النشيج يعلو.

أسندت رأسها على ظهر السرير، فككتَ أزرار بلوزتها، خلعت عنها مشبك السوتيان ثم هرعت إلى المطبخ، لتأتى إليها بكوب ماء.

صحت فى هدوء مصطنع:

- اشربى ، وحاولى تهدى .

تجرعت قطرات منه، خلعت عنها حذاءها.

هى الآن فى وضع استرخاء، كفت عن النشيج، جلست على المقعد المقابل لها، تتأملها مغمغماً:

- هى ليلة ليلاء من أولها.

قلت:

- هيه، هديتي؟

أومأت برأسها.

أردفت:

- إيه الموضوع؟

زفرت نفساً متقطعاً وعينيها تبحلقان فى السقف:

- من صباحية ربنا بلف، مش لاقياه.

- وبعدين؟

طفرت الدموع من عينيها:

- أبويا كرشني من البيت، وهو بيتهرب مني .

فضلتَ الصمت. ضمت ركبتيها على بطنها، دفست رأسها بينهما:

- معرفتش أروح فين، نادية أبوها صعب وعندهم كوم لحم في البيت، وملك مش موجودة، فكرت فيكي ..

علا بكاؤها:

- أنا .. حامل.

انتفضت من مكانك يا بهلول، عصفت بك المفاجأة، قاطعتها:

- أنتِ بتقولي إيه؟ انطقي ..

صاحت وعينيها مغرورقتين بالدموع:

- هو زميلكم في الجامعة، اسمه يحيى ، أكيد عارفاه، طبعاً، أبوس رجلك شوفي لي حل.

صحت يا بهلول والانفعال يكاد يفتك برأسك:

- وأنا دخلي إيه بالموضوع ده، أنا ..

عاودها النشيج.

درت حول نفسك، ضارباً كفاً بكف، استدرت إليها:

- لو سمحت اهدي ، لاحظي إن أنا لوحدي ومش عاوزه حد من الجيران يسمع لنا حس.

عبثاً حاولت تهدئتها.

فتشت داخل دولابك على علبة منوم، أعطيتها حبتين وظللت بجوارها على حافة السرير حتى راحت في النوم.

خرجتم إلى الشارع وكنتم خمسة بعد انفضاض مؤتمر صغير في الجامعة.

صاحت ملك وهى تدور حول نفسها:

- عصافير بطنى بتصوصو.

رددت يا بهلول:

- ومين سمعك.

صاح سعيد ويحيى فى نفس واحد:

- نروح عند رأفت.

ورأفت هذا، أقرب محل فول وطعمية من الجامعة، وأشهرها، طالما هدأت جوعك عنده يا بهلول.

تأبطت ذراع نادية يا بهلول، وخلفكما سعيد وأمامكما يحيى وملك وبالخطوة السريعة المنتظمة، مشيتم فى اتجاه واحد من أجل هدف واحد، إسكات عصافير بطونكم المصوصة.

أمسك يحيى بالكيس الورقى الكبير المحمل بالسندويتشات وسعيد بالكيس الصغير المحمل بالطرشى، جريا نحو الحديقة المقابلة للمحل، والكل يجرى خلفهما.

استلقيتم على العشب تعباً.

كانت النجيلة ندية، محاطة بأسوار حلزونية قصيرة، تطل على تقاطع سيارات على الشارع العمومى. انحسر رداؤك، كاشفاً جزءاً من فخذيك يا بهلول، بينما كانت نادية ترتدى الچينز وملك چيبة طويلة.

احمر وجه سعيد حين سقط على جسدك يا بهلول:

- يا ريت نتعدل فى جلستنا، احنا مش لوحدنا فى الشارع.

انفرجت أسارير يحيى وهو يلتهم لحمك بعينيه:

- يا متخلف، سيبهم براحتهم، جسمهم وهم أحرار فيه.

شددتَ رداءك مغطياً ركبتيك يا بهلول، أردف يحيى منصرفاً ببصره إلى سعيد:

- يناموا يقعدوا، يقوموا، يمشوا عريانين، محدش له عندهم حاجة.

فرد الكيس الورقى ، فاحت رائحة الطعمية السخنة، تدلى ريقكم وأذرعتكم نحو الساندويتشات يا بهلول، متسابقين، متلذذين بالطعم والرائحة.

وبعد أن تجشأ البعض وتمطع البعض الآخر، لف سعيد بقايا الخبز والطرشى داخل الورقة المتسخة، قذف بها بعيداً بعرض الشارع لتدهسها عربة مسرعة.

فرد يحيى جسده على النجيلة ويداه متشابكتان خلف رأسه، صاح متنهداً:

- الواحد ياكل الفول ويتيس.

وضعت يدك على بطنك المنتفخة ضاحكاً يا بهلول:

- أيوه الفول صديقى .

قرصتك نادية فى خصرك:

- هو برضه اللى صديقك؟؟

نهرتها بكفك رامشاً بعينيك:

- اختشي

ضحك بقية الزملاء.

قطع سعيد التهريج:

- وبعدين يا زملاء مفيش حاجة نعملها غير الهزار؟

ردت نادية:

- أف، الأستاذ حضر.

زم شفتيه:

- احترمى نفسك يا زميله.

أشاحت نادية بيدها:

- بطل والنبى ، بلا وجع دماغ.

تدخلت ملك:

- هى ماتقصدش إهانتك يا سعيد.

قطب سعيد حاجبيه:

- تقصد ولا لأ ماتفرقش.

حاولت ملك فض الاشتباك:

- تيجوا نتكلم شوية عن الحرية الشخصية؟

اعتدل يحيى فى جلسته، نفض ما علق من نجيلة على جسده:

- عاوزين الصراحة؟ أنا شايف إن الحرية ما بتتجزأش، يعنى مافيش حاجة اسمها حرية شخصية وحرية عامة، الاتنين بيصبوا فى بعض.

تدخلتَ فى الحوار يا بهلول:

- بس فيه فى حياتنا الشخصية أشياء خصوصية جداً، صعب إننا ندرجها ضمن الحياة العامة، يعنى مثلاً أخرج وقت ما أحب، أنام وقت ما أحب، أضحك أتنطط، أحط أحمر والا أخضر، ألبس اللى أختاره، أسمع موسيقى باحبها، أمشى عكس المعتاد، أحب اللى أنا عاوزه، إن شالله حتى أتجنن و.. .. ..

قاطعته نادية:

- يعنى أنت شايف، مثلاً، مثلاً يعنى ممارسة الجنس حرية شخصية، وممكن تبقى قبل الجواز ولا بعده؟؟

امتلأ وجه سعيد بحمرة قانية:

- يعنى انتى مش شايفة فى الدنيا إلا ده؟

ردت نادية بحنق:

- لأ طبعاً، شايفه حاجات كتير أنت دايماً تفهمنى غلط، و..

تدخلت ملك بهدوئها المعتاد:

ـ عيب يا سعيد، اسكتى يا نادية، الموضوع ده يا خوانا حيوى ومهم فى حياتنا، مانقدرش نتجاهله، زى التنفس، الميه، الهوا.

سعل يحيى سعالاً متقطعاً، ثم استجمع نفسه دائراً بعينيه حول الجميع، تحدث بتؤدة متمثلاً دور الأستاذ:

ـ أنا مع الزميلة ملك، الجنس طبعاً شيء ضرورى وحيوى، وللمرأة مطلق الحرية فى ممارسته قبل الجواز أو بعده، دون اعتبار لكلام الناس المتخلفين عن حتة الجلدة اللى بيسموها غشاء البكارة، وده لا بيقلل من احترامها ولا ينقص من قدراتها.

زفرتَ نفساً مطمئناً يا بهلول لتلك الكلمات الصادرة من شاب فى مقتبل عمره.

هزت ملك رأسها لأسفل دون تعقيب، هللت نادية:

ـ هو كده، تحيا المرأة، يا بخت اللى حتكون من نصيبك يا يحيى.

أحمرت أرنبة سعيد:

ـ ماشى الكلام إلا مع حبيبتى، دانا كنت دبحتها وشربت من دمها لو هى مش بنت بنوت.

ضحك الجميع، أثناء قول يحيى:

ـ وقعتها سودة اللى حتكون من نصيبك يا سعيد.

نبهكَ مواء القطط الصادر من المناور إلى تقلبات إنصاف فى السرير يا بهلول وغمغمتها المستمرة.

ارتميت على الفراش بجوارها مغمغماً بتعب السنين الذى احتلكَ فى تلك الليلة المشئومة، قوى جسدك خائرة، ودماغك متيقظ وكأنك فى عز الظهر. قمت من على السرير، قذفت حبة

مهدئة في حلقك، نظرت لشريط الضوء المتسلل فجراً من شباك المنور. تذكرت المستشفى وأحمد وإنصاف والعمل ويحيى و.. ..

آه.. يا بهلول، لم يعد لديكَ وقت حتى للحزن الشفيف.

قمتَ، وضعتَ رأسك تحت ماء الصنبور البارد، أبدلتَ ثيابك.

ألقيتَ نظرة على إنصاف، وجدتها غارقة في النوم.

انتعلتَ حذاءكَ، علقتَ حقيبتك الصغيرة فوق كتفك، مغلقاً الباب خلفك بهدوء.

أضحت رائحة التعقيم سبيلك في الأهتداء إلى مكانه يا بهلول.

حين وطئت قدمك العنبر ذي الأسرة المعبأة برائحة الدخان والقطن المعقم، وجدت شخصاً كما ولدته أمه ماثلاً أمامك، جسده متفحم مبثور بالشظايا، مفصول الذراعين مبتور الجزء الأمامي من عضوه الذكري .

ارتعشت، تقلصت معدتك الخاوية وأنت تتلقى ضحكته المجنونة الباكية، عاوجاً لك رأسه.

- آهو، هناك، أمسكوه.

حين سمع صوت الحكيمة التي اقتحمت العنبر ومعها اثنان من الجنود الأشداء، أطلق لساقيه الريح، طائراً بين الأسرة مع البحلقة والضحك الهستيري للجرحى المكدسين فوقها، وقبل أن يصعد على حافة الشباك، كانا قد أمسكا به، وكالذبيحة، رفعاه من ساقيه، ملقيين به على سرير في نهاية الممر، ضاغطين عليه بأكفهما الغليظة مع صراخه المستمر والحكيمة تجري للحاق بهما، في يدها السرنجة وخلفها ممرض يدفع أمامه عربة معدنية ذات عجلات عليها أدوات جراحية وقطن وشاش ومحاليل

وسرنجات.

غرست الإبرة سريعاً فى مؤخرته المهتزة مع صياحه وسبابه.

ـ يا ولاد الكلب، حابلغ عنكم القيادة، واتصل بالريس.

حين انتهت الجلبة، وقفتَ على مقربة من سرير أحمد يا بهلول، تتأمل عينيه المغطاة بالشاش.

وحدك تختبىء داخل حزنك يا بهلول، تتساءل أين أنت من نفسك، هل انتهت الحرب فعلاً أم بدأت؟؟

اقتربت أكثر، جلست على حافة السرير.

ـ قربي

سمعت صوته ضعيفاً

ارتميت على صدره، ربت على شعرك بكف خشنة، همس:

ـ أعرفك من ريحتك.

رفعت رأسك متماسكاً:

ـ سلامتك، شدة وتزول.

رفعت البطانية من أسفل السرير كى تغطيه، حرك ساقه الوحيدة لأعلى ، زعق:

ـ سيبى كل حاجة مطرحها.

أدار وجهه:

ـ سيبينى دلوقت.

أذعنت لرغبته، احتويته بعينيك، بدءاً من الشاش الملفوف حول عينيه حتى ساقه المبتورة تحت الركبة مباشرة.

أدرتَ وجهكَ على الصوت الآتى من السرير المجاور:

ـ يا ستى مش وقته.

كان الرجل قد قارب على الستين قصير الحجم، يحاول

إقناع امرأة سمينة فى الخمسينيات من عمرها، مربعة الوجه، يعلو بشرتها طبقة مكياج كثيفة.

وعلى بعد خطوات منهما، تقف فتاة طويلة القامة فى العشرينات، ذات وجه طفولى ، بض وشعر بنى فاتح منسدل على كتفيها.

وبصوت عال قالت السيدة:

- البت لسة صغيرة، تسيبه من أولها، احنا لسة على البر.

فتحت حقيبة يدها مواصلة الكلام:

- وآدى شبكته والدبلتين ينفعوه.

نظرت بطرف عينك يا بهلول على الشاب الأسمر الملفوف صدره بالشاش وساقه بالجبس، شاخصاً إلى السقف دون حراك، عيناه متحجرتان ولا تعبير بسيط على وجهه وكأن الكلام لا يعنيه أو أصابه الشلل.

حاول الرجل العجوز الإمساك بيديها، انفلتت منه، ملقية بالشبكة والدبلتين فوق البطانية صائحة:

- مفيش نصيب.

أدارت ظهرها للسرير يتبعها القصير، زاعقة:

- يالّلا يا بت.

ألقت الفتاة نظرة أخيرة، خلسة، من خلف ظهر أمها، ثم جرت من العيون المبحلقة لتتبع خطى أبويها.

وكأنما نزل سهم الله على رأس «أحمد»، تشعر به فى قلبك يا بهلول، يتأسى ويرى ألا سبيل للكلمات فى مثل تلك اللحظات.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

قالت سيدة مسنة متشحة بطرحة سوداء وترتدى جلباب قطيفى متسع.

لحظات صمت، تنقلت فيها عينا العجوز بينك وبين «أحمد».
صاحت من السرير المجاور:
ـ ربنا يصبرك يا بنتى ويصبرنا كلنا.
وتنزل لؤلؤة صغيرة على خدها المخدوش بالزمن.. ..
صاح واضعاً يده على كتف أمه العجوز، مبتسماً لك يا بهلول:
ـ ما تصلى على النبى امال.
أردف وهو ينظر إلى «أحمد»:
ـ وأنت يا دفعة، ما تروق، وتخلى يومك أبيض.
تأملته يا بهلول، أسمر كطمى النيل، آثار الشظايا والدخان الأسود على جبينه وكفيه، عين واحدة مضمدة بالشاش ولا يملك غير ساق وحيدة.
ضحك، مشاوراً على «أحمد»:
ـ نسخة بالكربون منى ، بس أنا شرفت هنا قبل منه.
وتنفلت ابتسامة من «أحمد»، يحتوى بكفه المعروقة المشظاة كفك يا بهلول، تلك اليد التى تحفظ تضاريسها جيداً وتستشعر حنانها وتمتص عرق اللذة منها.
ـ قربى منى .
وتلبى نداء قلبه يا بهلول، تقترب، تربت على صدره، ترويك أنفاسه الدافئة.
لف ذراعه على خصرك:
ـ فين الولد، عاوز أشوفه.
كنت تهيىء نفسك لهذا السؤال، عند الحاجة:
ـ الولد فى أمان، عند الحاجة..
أشاح بوجهه زافراً فى سخط:

ـ أهلك مارضيوش بيه طبعاً؟
ربت على يده:
ـ بس أنا رضيت بأبوه وأهديته ولد جميل يشبهه.
انفرجت أساريره، أردفت يا بهلول:
ـ أنا شفت إن الحاجة أنسب واحدة ترعاه لغاية ما نلاقى لك مطرح، داحنا دوخنا عليك شهور بين مكاتب الأسرى والشهداء، ووصينا ناس، يا آه، ملعون أبو الحرب وسنينها، المهم حمداً لله على سلامتك يا حبيبى والحمد لله أنها جت على قد كدا.
ربت على فخذك مبتسماً:
ـ الله يسلمك يا بهلول.
سرتَ فى عروقك نشوة، أردفت مطمئناً:
ـ كل حاجة حترجع لأصلها لما..
رفع ذراعه، نفخ نفساً حارقاً:
ـ مفيش حاجة بترجع، سامعة؟ بقولك مفيش حاجة بترجع..
تراجعت للخلف مرتبكاً.
أدار رأسه صائحاً:
ـ تقدرى تنجى بحياتك لو حبيتى.
سقط قلبكَ فى قدمك يا بهلول، كيف يجرؤ على تفوه كلمة كهذه، «تنجى بحياتك» وهل تمر حياتك إلا معه؟
رددتَ مخففاً عنه:
ـ يا حبيبى أنا يوم ما اخترتك، اخترت عقلك وإرادتك مش..

تنقلت يدك فوق جسده حتى وصلت إلى أسفل بطنه.
أردفتَ مداعباً:
ـ وبعدين العدة شغالة زى الفل، حاننهب.

انتزعتَ ضحكته، فاتسع الحلم فى عينيك يا بهلول، انفلتت ابتسامة متعرجة من العجوز القابعة على سرير «النسخة الكربون» ترقب الموقف.

ـ ربنا يروق بالكم يا بنتى .

وبطرف طرحتها، مسحت دمعة معلقة فى ركن العين. ابتسمتَ، هازاً رأسكَ يا «بهلول»، ودون أن تتبس بكلمة، نظرت فى ساعة يدك متنقلاً ببصرك بينها وبين «أحمد».

قلت:

ـ اتأخرت.

شدّ على يدك، ضغطت على كفه بقوة:

ـ معلهش يا حبيبى ، ح أمر عليك بعدين، ورايا مشوار مهم.

طبعتَ قبلة سريعة فوق جبينه المغطى بالشاش، أومأتَ برأسك للنسخة الكربون:

ـ سلام عليكم.

رد «النسخة الكربون» بصوت عال مفرح:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ألقيت نظرة على السرير الآخر، رأيته لا يزال متجمداً فى مكانه والأسورة والدبلتين مكان ما ألقتهما المرأة المتصابية فوق البطانية.

أدرت ظهرك للعنبر، فى الوقت الذى اندفعت عجلات المناضد داخل الممر الطويل محملة بالطعام.

صعدتَ إلى الطابق الثانى حيث القسم الموجود فيه محاضرات «يحيي».

وجدتَ بعض الطلاب القلائل متفرقين فى الممر، سألتَ أقربهم وكان طالباً ضخم الجثة ذا وجه طفولى يسند ظهره على

الحائط ممسكاً كتاب مفتوح.

سألته:

ـ هو الزميل «يحيى مسعود» معاكم فى القسم؟

أغلق الكتاب، فرك شعر رأسه:

ـ يحيى ، يحيى مسعود؟ ده مش بيحضر محاضراته من مدة.

استدرت مغمغماً يا بهلول:

ـ شكراً.

واصلتَ بحثك عنه، مثل إبرة فى كوم قش، فى التجمعات المتفرقة للطلاب، قاعات المؤتمرات، أمام مجلات الحائط، الكافيتيريا.

كان وجه «إنصاف» المائل إلى الزرقة، وعينيها المنكسرتين يحثانك على العثور عليه.

آه.. يحيى ، يحيى ، هذا الصوت الجهورى أفضل من يتحدث عن تحرر المرأة، وتشهد مقالاته وصداقاته والنجيلة وسندويتشات الفول والطعمية بإنطلاقة لسانه.

الزميل يحيى ، لا يطمئن إذا نامت فتاته معه قبل الزواج، شيء يبكى أم يضحك، لم تعد تدرى يا بهلول.

تركتَ الجامعة خلف ظهرك، وعلى ناصية البيت أمام محل خردوات استعنت بتليفون عمومى فى الاتصال بأحد معارفه، أخرجت نوتة صغيرة، أدرت القرص، جاءكَ صوت سعيد، نافياً معرفته بمكانه، وواعداً بالبحث عنه.

وبطرف عينك، لمحت المخبر «أبو شنب» بمعطفه الأصفر وعصاه الجريد تحت إبطه يتحدث ويشاور بيديه مع اثنين من أهل الحتة، عرج بهما داخل حارة متفرعة من الشارع، أدرت

القرص مرة أخرى ، جاءتك أم نادية على الخط، تعلن عدم وجود ابنتها بالمنزل.

مشيت متثاقل الخطى ، نحو المنزل، سمعت بائع الفول الحراتى واقفاً أمام عربته يزعق تحت شرفة البيت.

عم «سدراك»، الآتى من الصعيد البعيد بطوله الفارع وسمرته وجلبابه الكالح، يبيع الفول الحراتى فقط فى موسمه، ثم يختفى باقى شهور السنة، وأحياناً تهاجمه البلدية فيتوارى أياماً ويعود إلى أن ينتهى الموسم.

لا أحد يعلم له ملة أو أهل، غير أنه رجل غلبان آت من الصعيد الجوانى .

ألقيت عليه التحية، رد بأحسن منها، وعبأ لك قرطاسك المعتاد.

أدرت المفتاح، وبهدوء دخلت، وجدتها كما تركتها فى الفراش نائمة كأهل الكهف.

وضعتَ القرطاسَ جانباً، رفعت الصحن المنقوع فيه الجبن القريش، غيرت الماء، وضعت قطعة أخرى من الجبن فى الصحن، هرستها جيداً، ثم غسلت حزمة جرجير، وضعت الجبن والجرجير والعيش على صينية، أفرغت بعض الفول الحراتى عليها، جلستَ على حافة الفراش، بعد أن وضعت الصينية على المنضدة، هززتَ «إنصاف»:

- قومى ، كلى لك لقمة.

تقلبت فى الفراش متأوهة:

- ماليش نفس.

هززتها مرة أخرى :

- لازم تاكلى .

اعتدلت متثاقلة، أسندت ظهرها على الحائط البارد، قالت بصوت واهن:

- مش قادرة.

مددت يدك فى الصحن، آخذاً قطعة جبن صغيرة، قربتها من فمها، وضعت كفها على شفتيها:

- نفسى غامة عليا..

ألقيت قطعة الجبن فى الصحن، طرطش الماء، جلست على المقعد تنقر بأصابعك على المنضدة صامتاً.

قامت «إنصاف»، اقتربت منك، محنية الظهر:

- أتوسل إليكى تشوفى لى حل، أنا مش قادرة ألجأ لحد غيرك، أبويا ممكن يدبحنى لو درى بالأمر، وأهل نادية شداد، وهايمنعوها عنى، والأستاذ يحيى، ربنا يسامحه، فص ملح وداب، آخر مرة شفته قال إنه مش مسئول لوحده عن اللى حصل، وطلب منى أتصرف.

انتفضت يا بهلول حين رأيتها تجثو محاولة تقبيل قدميك، نهرتها:

- أنا خارجة ومش عاوزه أشوفك هنا.

ارتعشَ جسدها:

- لأ، أنا ف عرضك، ماتفوتينيش وحدى.

فتحتَ الدولاب يا بهلول، سحبتَ شالاً، وضعته على كتفيك.

جرت إنصاف نحو ركن المطبخ صائحة فى هستيريا:

- هاكب على نفسى جاز واستريح.

جريتَ خلفها، شددتَها من ظهرها، دفست رأسها فى صدرك منتحبة.

ربت على رأسها مهدئاً إياها:

- ماتخافيش، تعالى اغسلى وشك وكلى لك لقمة.

استكانت أخيراً، وضعت رأسها تحت الصنبور، اندفعَ الماء غزيراً، يغسل همها، أحضرت لها منشفة، ساعدتها فى تجفيف رأسها وقد هدأت أساريرها قليلاً.

جلستما متواجهتان، يتوسطكما الفول الحراتى والجبن القريش، طالَ الصمتَ أثناء القضمات المتقطعة، نهضت يا بهلول صائحاً:

- لازم أخرج، ورايا مشوار صغير.

نظرت لعينيها المرتبكتين مردفاً:

- مش هاتأخر.

خفضت رأسها إيجاباً.

تركتها وحدها أمام المنضدة، لملمت شعرك، رفعت جوربك، أحكمتَ الشال حول صدرك، علقت الحقيبة على كتفك.

الفصل السادس

مشيتَ فى الهواء يا بهلول ـ كى ـ يعينك على التفكير فى تلك الورطة الأشبه بقنبلة زمنية فى بيتك.

قادك تفكيرك إلى بيت خالتك ولم تكذب خبر، ركبتَ الأتوبيس، وعند الدوران المؤدى فى تفريعته إليها نزلت.

بدأ آذان العشاء ينتشر صداه فى السماء وبين البيوت والأزقة. تركتَ الفرن البلدى فى أول الحارة، يليه بخطوتين البقال ثم الإسكافى وعند البيت المبنى بالطوب الأحمر ثلاثة أدوار وقفت.

ـ ارجع يا «عوض» ارجع.

كان صوت الخالة، يجلجل بين أصداء السلالم ويصل إلى حيث تقف يا «بهلول» فى بئر السلم.

نباح كلب يعلو، رؤوس الجيران تطل من الدرابزين وتختفى .

اقتربتَ من الصوت فى الدور الثالث من بيتها (الملِك) الذى ورثته عن زوجها المتوفى .

علا صوتها حتى بح:

ـ يا راجل انزل، حتعمل عقلك بعقل كلب وبمجرد أن وقع نظرها عليك صاحت:

ـ ألحقيه يا بنتى فوق السطح، الكلب حيموت فى إيده.

كنت متعوداً على طبيعة العلاقة بينها وزوجها، امرأة قوية ذات نزعة مسيطرة، عودها فارع وقوامها ممتلىء، مات زوجها

الأول فى ريعان الشباب، أما الثانى فقد طلقها غيابى ولا تعرف عنه شيئاً والثالث «عوض» نازح من أقاصى الصعيد، يعمل فى مصنع بلاط.

لم تنجب ووفقاً للمثل الدارج، رضيت بزواجها «ضل راجل ولا ضل حيطة» وتحسباً للأقاويل وحصار العيون وبعد أن تقدم بها العمر أيضاً.

وعم «عوض» رغم شهامته وطيبة قلبه، إلا أنه قبل نزعتها إلى السيطرة ومع الوقت أضحى كالقط الذى لا يحب إلا خناقه، مما جلب عليه مهانة على قدر عشقه لها.

كدت تقع يا «بهلول» عند وصولك إلى درجتى السلم قبل السطح، اندفع كلب كبير أجرب نحوك وخلفه عوض.

رجعت بظهرك، وعم «عوض» بقامته المديدة وكتفيه العريضين يجرى خلفه، ماسكاً طرف جلبابه الرمادى المتسخ بيده، حافى ومشقق القدمين، وباليد الأخرى عصا مكنسة وصوته عال:

ـ إياك تقربلها عاد، يابن المرة الدايخة.

وقفت مندهشاً يا «بهلول»، يقرب من؟ خالتك، أو ابنة الجيران أم أن الرجل قد جُن.

استدرت للخلف دُر ـ لفض الشجار.

أوصدتَ الباب على خالتك وزوجها حتى تحد من الصوت العال والفضائح.

ـ يا خالتى ، صلى على النبى ، استهدا بالله يا عم عوض، شددتَ ذراع الخالة بقوة وهى تقاومك صائحة:

ـ كان يوم ماطلعتلوش شمس، يوم ما خطيت عتبة البيت، أنت مالك كلب ينط، على كلبة ولا يسخمها، حتعلم الكلاب الأدب،

ياخى علم نفسك الأول.

رفع عم «عوض» كفه عالياً:

- يا ولية، حطى لسانك جوا خشمك وإلا تلاته بالله العظيم.. ..

انفلت ذراع الخالة من قبضة يدك يا «بهلول» شقت جلبابها من عند الصدر، بصقت فيه:

- حابس، حابس، خضتنى ، أنت فاكر نفسك راجل بحق وحقيق.

تورم وجه عم «عوض» ونفرت عروقه، استدار فى اتجاه المطبخ صائحاً:

- حادق راسك بإيد الهون واعرفك مين الراجل.

سكتت الخالة، جريت خلف عم «عوض» يا «بهلول»، وهو هائم يبحث عن يد الهون، رجعت الخالة إلى الوراء، دفعتها أمامك يا «بهلول» إلى أقرب حجرة وبالترباس أغلقت عليكما الباب من الداخل، وأنتما تكتمان النفس مع الطرق المتواصل على باب الغرفة، الذى كاد أن ينخلع.

وبعد دقائق، خف الطرق، وسمعتما وقع أقدام مصحوب بغمغمة:

- استغفر الله العظيم، حسبى الله ونعمة الوكيل فيكِ يا شيخة.

حين ابتعدت صدى أقدامه، وتأكدت الخالة من نزوله، فتحت الترباس، صاحت هى خارجة إلى الصالة متوجسة:

- غور، ينعل أبو البلد اللى حدفتك.

أشارت إليك يا «بهلول» وأنت ترقبها من داخل الغرفة:

- تعالى يا بت، نشرب لنا كباية شاى ولا أقولك أعمل لك

لقمة سخنه.

أضأت النور يا «بهلول»، اقتربت منها زافراً فى غيظ:

ـ أنا مش جعانة، خليكى واعمل أنا الشاى .

اتجهت نحو المطبخ المفتوح على الصالة يا «بهلول»، وضعت الكنكة على النار وتلفتَ حولك، رأيت الأوانى النحاسية القديمة التى كنت تراها صغيراً حين تحضر مع أمك، وضحكت حين تذكرت «الكنيف» البلدى الذى تزحلقت قدمك داخله أكثر من مرة، والطشت النحاسى والكُوز الصفيح.

وكنتم، أنتَ وخالتكَ وأُمكَ، تفرشون الأرض بالحصير فوق السطوح، تُحضِر خالتكَ الطبلة، تسخن جلدها على النار، تناولها لإحدى الجارات، يحمل عم «عوض» النرجيلة، يرص حجارتها، يعطيها للخالة ونارها تطقطق.

وتجلس القرفصاء على الحصير يا «بهلول»، ترقب الماء وهو يدور دوائر داخل زجاج الشيشة حتى يصعد إلى أعلى وتزفر خالتك الدخان وهى تهز رأسها مع الطبل والزغاريد.

وتتبارى بنات الحتة وتتفنن فى الرقص، وتندهَك رائحة الدخان الأزرق ودبيب الأقدام يا «بهلول»، فتقوم لترقص وتدور حتى تترنح ويصيبك الدوار.

ـ اتفضلى الشاى يا خالة.

كان الزمن قد نال منها بعد إصابتها بمرض السكر اللعين، قلت كفاءتها وضعف بصرها، لكنها لم تزل محتفظة بقامتها المشدودة ولسانها المفلوت.

جلستَ بجوارها على الأريكة، ترشفان الشاى سوياً بعد رحيل عم «عوض» وتحكيان.

ـ خير يا حبيبتى ، إيه اللى فكرك بيا.

تنَهدتَ يا «بهلول»:

- مشاغل يا خالة، مانت عارفه العيشة صعبة.

تصعبت الخالة:

- على رأيك يا بنتى ، هو الغلا اللى احنا فيه شوية.

ثم صمتت قليلاً متأملة إياك يا «بهلول»:

- مالك يا بت لونك مخطوف.

وضعت كوب الشاى بعنف على المنضدة وصوتك يرتفع يا «بهلول»:

- يا خالتى انتى مش عايشه فى الدنيا، مش عارفة إن فيه حرب وإن أحمد انصاب وراقد فى المستشفى .

خبطت خالتك بكفها على صدرها:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، والنبى ما حد بلغنى ، يا عينى عليكى ياختى ، بختك من بخت خالتك، وانصاب فين ياختى .

- بتر تحت الركبة وشظية فى عينه اليمين.

برقت عيناها، عَددَت:

- يا حوستى ، يقطع الحرب وسنينها، ربنا يصبرك يا بنتى ، وهو فين دلوقت؟

- فى المستشفى العسكرى ، وأنتِ نازلة من على الكوبرى شمال الميدان.

تصعبت:

- دا عمك «عوض» حيزعل لما يعرف، حاكم بيعزه زى عينيه، إن شاء الله نبقى نروح نزوره وناخد بخاطره.

ضربت كفاً على كف مردفة:

- حظك فى الدنيا قليل زى خالتك يا ضنايا.

رأيتَ أن الوقت مناسب لكى تدخل فى الموضوع الذى جئت

من أجله يا «بهلول».

ـ إلا بالحق يا خالتى، مش كان فيه حكيم شاطر رُحت له مع أمى زمان، عيادته قريبه من هنا بس مش فاكره فين؟

أغمضت الخالة عينها وبعد فترة صمت صاحت:

ـ قصدك اللى تخرميله من شارع الكنيسة بين السيما والسوق.

شردت قليلاً يا «بهلول». تذكرت الكنيسة ذات الباب العال المزركش وصورة العذراء المضيئة فوقه.

رددت

ـ افتكر، هو، يا ترى لسه موجود؟

وضعت الخالة كوب الشاى الفارغ صائحة:

ـ حايروح فين يعنى.

ثم استدارت بوجهها نحوي:

ـ لكن قوليلى، فيه حاجة كفا الله الشر.

أطرقتَ:

ـ أبداً، شوية افرازات وحرقان.

هزت الخالة يدها:

ـ دا شاطر، يحط إيده على الجرح يطيب تجى اروح معاكى، واهو عمك «عوض» يبقى يشقر على الفراخ فوق السطح.

أمسكتَ كتفها فجأة:

ـ لأ، خليكى مرتاحة، دا فى سكتى وأنا نازلة.

قمت مسرعاً يا «بهلول»، عندك هندامك.

قامت الخالة، وضعت يدها فى صدرها، أخرجت كيس قماش مربوط بحمالة الصدر فتحته، أخرجت منه بعض

الوريقات النقدية، ثم أحكمت قفله واضعة إياه داخل صدرها مرة أخرى.

عدتهم، كانوا خمسة، طبقتهم ووضعتهم فى بطن كفك.

حاولت منعها:

- ما فيش داع يا خالتى، مستورة والحمد لله.

ردت بنظرة حادة:

- اسكتى يا بت.

خفضت رأسك يا «بهلول» وأنت تمشى فى اتجاه الباب، وصوت خالتك يلاحقك:

- استنى، اجهز لك لقمة.

- معلهش، اتأخرت.

وصلتَ إلى الباب وخالتك تتبعك:

- قادر يغير الأحوال يا بنتى، سلمى على أمك واخواتك والمحروس جوزك، كبدى عليه، ربنا يكتبله السلامة إن شاء الله.

- فتك بعافية يا خالتى.

ضمتك بقوة، وصوتها يتبعك على السلم:

- ابقى طمنينى.

- حاضر.

قلتها وأنت تنزل السلم المتعرج سريعاً يا «بهلول»، وجدتَ الكلب الأعرج المجرب قابعاً عند المدخل، ابتلعت قدماك الطريق، حتى وصلت إلى شارع الكنيسة وناصية السوق والسينما.

دخلت الشارع الضيق بينهما، مشيت حتى قاربت نهايته وهناك رأيت يافطة الطبيب معلقة.

مدخل العيادة معتم، المقاعد الجلدية كالحة قديمة، يجلس

عليها بعض السيدات اللائى يتعددن على الأصابع، البعض بطونهن منتفخة أمامهن، والأخريات يضعن أياديهن على خدهن فى انتظار الدور.

الممرضة جالسة أمام منضدة صغيرة، عليها أوراق و«روچيتات» وتليفون، كانت سمراء قصيرة، فى منتصف العمر تقريباً، عاقدة شعرها المصبوغ صباغة رديئة إلى الخلف، تمسك قلماً جافاً فى كفها المعروقة وتجول ببصرها بين النساء والباب الخارجى.

وقفتَ أمامها يا «بهلول»، رفعت وجهها:

ـ نعم، أية خدمة، عادة ولا مخصوص.

رددتَ بصوت خافت:

ـ عاوزه أقابل الدكتور فى أمر مهم.

ـ اقطعى تذكرة واستنى دورك.

ـ كام؟

ـ اتنين ونص عادة، وخمسة مخصوص.

ناولتها الفلوس العادة صائحاً يا «بهلول»:

ـ بقولك عاوزه أقابله فى موضوع ضرورى.

درتَ حول المكتب، اقتربت منها حتى كدتَ أن تلاصقها، وضعت خمسون قرشاً فى جيب معطفها الأبيض سريعاً دون أن يلحظ أحد.

أطرقت صائحة:

ـ طب استنى لما يطلع اللى عنده، اتفضلى اقعدى.

ولم تتفضل يا «بهلول»، ظللت واقفاً مع تصعبات بعض النسوة وهمسات الأخريات.

قامت الممرضة، طرقت باب الطبيب، دخلت عنده لمدة لا

تزيد عن دقائق ثم خرجت غامزة بعينها لك.

انتظرت ربع ساعة، بعدها فُتح باب الطبيب وخرجت منه سيدة بيضاء طويلة، بطنها أمامها، تعكزت على ذراع الممرضة حتى أوصلتها إلى الباب الخارجي للعيادة.

أشارت إليك أن تدخل يا «بهلول».

خطوت إلى داخل حجرة الكشف، كان الطبيب جالساً على مكتبه، في الخمسينيات من عمره، أسمر، جسده نحيف ظهره محنى بعض الشيء، يضع نظارة سميكة على عينيه وشعره خفيف زاحف إلى الوراء، مما جعل صلعته تلمع تحت الضوء، يرتدى البالطو الأبيض والسماعة معلقة على صدره.

بادرت بالقول يا «بهلول»:

ـ أرجوك يا دكتور، عاوزه حضرتك فى حاجة إنسانية مافتكرش حتردنى.

عقد الطبيب حاجبيه:

ـ خير.

تلعثمتَ يا «بهلول» ثم تماسكتَ:

ـ اختى، خطيبها مات، واكتشفت بعد موته أنها حامل منه فى شهرين، ارجوك يا دكتور، اختى طالبة لسه ومستقبلها حيضيع وأصل الموضوع إن.. .. ..

قاطعها الطبيب:

ـ كفاية فهمت.

خلع نظارته، طرق بأصابعه على المكتب.

كنت تسمع عنه يا «بهلول»، إنه قادر على فعل أى شيء بالفلوس وشاطر كما تقول خالتك.

نظر إليكَ نظرة حادة:

- خمسة وعشرين جنيه.

عضضت على شفتيك يا «بهلول».

- بس يا دكتور.

قام واضعاً يديه على المكتب:

- عشرين، آخر كلام، يكونوا معاكى بكره الضهر، مفهوم.

بلعتَ ريقاً مراً، هازاً رأسك فى صمت يا «بهلول». استدرتَ نحو الباب الخارجى، وسط اندهاش النسوة. نزلت إلى الشارع ورأسك يدور، مشيت كثيراً حتى محطة الأتوبيس الذى أقلك إلى محطتك الأخيرة، حجرتك الوحيدة القابعة وسط المناور.

أدرتَ المفتاح، وجدتَ «إنصاف» غاطة فى نومها، بملابسك فردت جسدك بجوارها، عين مفتوحة وعين نائمة، وظللت هكذا حتى طلوع النهار، و«إنصاف» لم تزل مستغرقة فى نومها.

قمتَ، غسلت وجهك سريعاً، انتعلت حذاءك وفررت خارج تلك الجدران القابضة.

نفس المشوار على الكوبرى المهكع والرائحة النتنة لسوق السمك وأنت متجه إلى مدرسة الخدمات، رافعاً ياقة قميصك إتقاء للبرد.

بنطلونك الواسع الكاحت لا يمنع تسرب الهواء إلى ساقيك النحيلتين وحذاؤك الضيق يشكو من قدمك المتورمة.

تركت الناصية وعند دخولك إلى الحارة الضيقة التى فى نهايتها جامع ومدرسة، صادفته، بقامته الضخمة وجلبابه الكالح، يضع المنشة تحت إبطه كعادته وبعينيه الجاحظتين لمحك يا «بهلول».

استدرت حتى لا يراك، وإذا بصبى على مقاس ركبتك، يشد سترتك من الخلف ويشاور بيده الواهنة:

ـ المعلم اللى هناك، عاوزك.

كان هو أسبق إليك يا «بهلول»، بعث الصبى يستوقفك، ثم جرى مسرعاً وأنفاسه تلهث حتى أضحى قريباً منك.

أزاح الصبى بكفه الغليظة بعد أن وضع فى يده ما فيه النصيب، أستدرتَ فى مواجهته يا «بهلول».

ـ سلام عليكم يا حاج، عاش من شافك.

سعل بقوة، فاندفع بلغماً غليظاً من فمه واستقر على حائط دكان.

صاح بصوت أجش:

ـ هل هلالك يا ست، الشهر قرب ينتهى وماحدش شاف وشك.

هربت الكلمات ـ منك ـ يا «بهلول»، أضحى دماغك أنظف من الصينى.

أردف الحاج، عم محمد، ملك الشغل كما يطلقون عليه فى الحي:

ـ مابترديش ليه؟؟

نفخت مللاً يا «بهلول»:

ـ والله مش عارفه أقولك إيه؟ ظروف.

سحب المنشة من تحت إبطه، حركها أمام وجهكَ:

ـ لا ظروف ولا جوابات، فين الأجرة.

ـ والله يا معلم، أنا قلت بلاش الشهر ده، معذورة.

عقد حاجبيه:

ـ يعنى إيه؟ هو بمزاجك؟

ـ والله اللى تحسبه يا معلم، مفيش يعنى مفيش.

تورم وجهه وزاد جحوظ عينيه:

ـ على العموم، أنا حاشوف شغلى وياكى.

نفذ صبرك يا «بهلول»:

ـ أعلى ما فى خيلك اركبه، هى فردقولا كانت فردة يعنى، دا إيه الذل ده!!

أعاد وضع المنشة تحت إبطه، لم جلبابه المنتفخ، بخ فى وجهك، باعداً إياك بيده الضخمة:

ـ أوعى من سكتى الساعة دى.

مرق أمامك بخطى مسرعة فى اتجاه الناصية وهو يغمغم:

ـ أنا حاعرف شغلى.

كدت تحصله يا «بهلول» لكن الشعور اللامجدى منعك. استدرتَ فى اتجاه المدرسة وأنت تضرب كفاً على كف محدثاً نفسك «المرابى ابن الأبالسة، عملى فيها حاج، وبيلهف منى إتاوة كل شهر، أنا أطفح (الكوتة) وهو يحط فى كرشه».

دخلتَ من باب المدرسة الأشبه بلعبة صغيرة رخيصة بلا أبواب.

مرقتَ يميناً حيث حجرة الناظر الضيقة المكدسة بالملفات والأوراق والكراتين.

كان يقف، يديه خلف ظهره بينهما عصا رفيعة؛ يشب على قدميه ناظراً من شباك الحجرة العالى الأشبه بالكوة على الفصل المقابل لحجرته يتصنت لكلام المدرس ويراقب التلاميذ عن بعد.

ـ سلام عليكم يا حضرة الناظر.

استدار نحوكَ، وما أن رآك، حتى فك اشتباك أصابعه ووضع العصا على المكتب بعنف:

ـ سيادتك كنت فين، إيه اللى أخرك؟

ـ ما حضرتك عارف الظروف، جوزى رجع من الحرب، والمعيشة والإصابة و.. ..

قاطعك:

ـ اتفضلى من قدامى دلوقت.

تساءلت مع نفسك يا «بهلول»: أتفضل داخل المدرسة أم خارجها؟

صحتَ:

ـ اتفضل فين يا فندم؟

شاور بسبابته فى اتجاه الباب:

ـ بره.

استفزتك الكلمة يا «بهلول»، جرحت كرامتك، وجدت نفسك ترد عليه بصوت عال جمع العاملين فى المدرسة:

ـ اتكلم بشكل محترم، أنا مش عبدة عندك.

ارتبك صوته، واحولت عينه، رد بصوت خفيض:

ـ يعنى إيه؟؟

خبط بكف يدك على صاج مكتبه:

ـ يعنى مش ماشيه إلا إذا أخدت بقية أجرى.

شاور بيديه إلى بعض المدرسين الذين التفوا حول الحجرة:

ـ كل واحد يشوف شغله يا أساتذة.

ثم اقترب منك، قال كمن يهمس إليك:

ـ هو انتى ماقابلتيش الحاج محمد؟

ـ قابلته وأنا جايه.

برقت عيناه:

ـ دا لسه ماشى من شوية واخد بقيت حسابك.

زفرت غيظاً يا «بهلول»:

- قصدك إيه؟

- يا ستى الحاج محمد، هو تقريباً اللى مشغل المدرسة دى، يعنى كلنا تحت أمره، وبنرضيه كل شهر، هو قال إن عليكى فلوس له متأخره واخدهم.

رددتَ بلهجة هستيرية:

- السافل، المنحط، دى فلوسى، تعبى وشقايا.. .. ..

قاطعكَ الناظر:

- والله احنا هنا تابعين له، حتى أنا مقدرش أرد كلمة للحاج محمد.

صمتَ يا «بهلول» كمن أسقط فى يدك.

مدّ الناظر يده فى جيبه، أخرج بعض الوريقات النقدية، نظر خلفه وأمامه، لم يجد أحد، أمسك يدكَ وضعهم فى بطنها:

- خدى جزء من حسابك وفوقهم جنيه من عندى، باين عليكى مش وش بهدلة، ربنا يوفقك وتلاقى شغلانة غيرها.

وكأن سهم الله قد نزل عليك يا «بهلول»، نظرت إلى الحوائط التى امتصت دمك شهوراً طوال، وإلى الأطفال المكدسين بين المقاعد، ووجه الطفلة التى تشبهك ونسيت اسمها فى زحمة الهموم.

مشيتَ حتى باب المدرسة، خرجتَ مطأطأ الرأس قابضاً على الورقات النقدية.

أحسستَ بالجوع الشديد والدوار.

فكرتَ فى أمك، وقفت على محطة الأتوبيس، ركبت واحداً، وقفت بين المزاحمين وكأنك فى علبة سردين.

نزلتَ فى محطتك، منبعج الهدوم، منكوش الشعر، وعلى مدخل البيت، حاولت إصلاح نفسك.

صعدتَ السلالم وأنت تحاول ترتيب ما ستقوله من كلام أو تبدأ به، لكن رأسك من الجوع والدوار صار كالطبل الأجوف.

كان الباب موارباً، أحدثت تزييقاً عند فتحه يا «بهلول»، جاءكَ صوتها من الداخل:

- مين اللى بره؟

وحين لم يصلها رد، أتَتْ تهز بدنها وما أن رأتك حتى جرت نحوك:

- كنت فين؟ قلقنا عليكى.

كان عناقاً فاتراً، على الأقل من ناحيتك يا «بهلول»، جلستَ على الكنبة بجوار الباب منهكاً، جلست قبالتك على المقعد، تعاتبك:

- هو أنتِ مالكيش أهل يسألوا عنك؟

تمتمت يا «بهلول»:

- مفيش داع للكلام ده، أنا تعبانة وجعانة.

هزت رأسها:

- الخير كتير والحمد لله، تعالى.

سرت خلفها يا «بهلول» حتى المطبخ، فتحت فرن البوتاجاز، أخرجت منه فرخة مشوية، قسمتها نصفين، أعطتك نصفاً، ثم فتحت غطاء حلة فانتشرت رائحة الملوخية.

صاحت فرحة:

- رزقك فى رجليكى، عاملة ملوخية من اللى قلبك يحبها، وشوية محشى تاكلى صوابعك وراهم.

قضمت إصبع محشى يا «بهلول»، يليه أصابع، غمزت بالملوخية والتهمت نصف الفرخة، وبين الحين والآخر تبلع بالماء.

مسحتَ يدك فى فوطة المطبخ هامساً:
- الحمد لله.
قالت أمك بعد انتهائك من الأكل:
- مش ناوية تسلمى على أبوكى.
- خليها وقت تانى، أنا تعبانة.
- دقيقة واحدة.
قالت أمك، وهى تندفع خارجة من المطبخ لتعود بعدها بدقائق وتدس ورقة فى يدك.
فردتها، وجدتها فئة العشرة جنيهات.
كدت تتحدث، اسكتتك صائحة:
- خليها معاكى، تنفعك فى الظروف دى.
غمغمتَ يا «بهلول»:
- شكراً.
ثم أردفت:
- خالتى بتسلم عليكى.
تنهدت أمك:
- والنبى مانا فاضية أهرش، على العموم، العيد قرب، نبقى نزورها إن شاء الله.
أطرقتَ:
- إن شاء الله.
حين همت لتلم الصحون، أسرعت لتأخذها منها صائحاً:
- عنك أنتِ.
لملمت الصِحون والأكواب يا «بهلول»، وضعتهم فى الحوض، فتحت ماء الصنبور وشرعت فى تنظيفهم وصوتها خلف ظهرك:
- اخوكى زعلان منك.

رددتَ وأنت مستمر فى التنظيف:
- ليه؟ كفا الله الشر.
- من بعد ما مشيتى آخر مرة، لا سألتى ولا طمنتينا، رحتى وقلتى عدو لى، طب حتى تليفون.
رصصت الصحون فى المطبقية يا «بهلول»:
- ودى حاجة تنقال، مانتوا عارفين الظروف بقى مين اللى يسأل عن التانى، أنا ولا انتم، دا كفاية صدمتى فى أحمد.

جففتَ يدك فى الفوطة المعلقة على الحائط، مردفاً:
- على العموم، حامر عليه قبل مانزل.
كان باب حجرته موارباً، رأيته - ظهره إليك - يوضب مكتبته، تذكرت أنك قرأت أول كتاب فلسفى منها، وكان حوار بين «برنارد شو» و«سلامة موسى»، يليه أصل الأنواع لـ «دارون»، يليه ثلاثية «نجيب محفوظ» وغيرها، ودوماً كان يقول لك، إنك تتأثرين كثيراً بما تقرأينه وإنه ليس حالماً أو رومانسياً مثلك، وكنت دوماً تختلف معه لإنك ترى أن حياتك من الخشونة التى لا تتيح لك أن تحلم.
وعلى كل، انتويت هذه المرة، أن تسلم عليه، ليس إلا، وتذهب لحال سبيلك.
فوجيء - بك - حين استدار، بادر بالكلام:
- مش حاتتغيرى عمرك، دايماً مندفعة.
تريثت فى الرد يا «بهلول»:
- يعنى مش شايف بنفسك اللى حاصلى.
وضع الكتب جانباً على رف المكتبة:
- عاوزه شاى.

ـ لأ، متشكرة، أنا نازله على طول.

تأملت وجهه يا «بهلول»، تعرفه من صغركما، حين يكون داخله كلام لا ينطق به، لكن عيناه تفضحانه:

ـ فيه حاجة عاوزنى فيها.

جلس على طرف سريره:

ـ بصراحة أيوة.

جلست على المقعد المواجه له:

ـ خير.

أخفض صوته:

ـ بصى، أنا مقدر اللى انتى فيه، لكن فيه كلمتين محشورين فى صدرى لازم أقولهم.

صمتَ يا «بهلول»، انتظاراً لبقية حديثه.

فرد صدره وعلا رقبته آخذاً دور الأستاذ:

ـ أنتِ عاطفية زيادة عن اللزوم، مش دارية بالكارثة اللى مقدمة عليها، أنا مش بكره «أحمد»، لكن إصابته حتخليه يشعر بالنقص والغيرة ويدفعك تمن ده من غير ذنب ليكى.

كنتَ أثناء حديثه يا «بهلول» مستفزاً منه، تشحن وجدانك للرد عليه دون تأمل كلامه وما أن انتهى حتى أطلقت عليه وابلاً من القيم والشعارات التى تعتنقها:

ـ أنت عاوزنى اتخلى عنه فى محنته، مستحيل، دا حارب عشانى وعشانك وللناس والبلد، ازاى اتخلى عنه لازم استحمله ونضحى عشانه زى ما ضحى عشانا و.. ..

قاطعك:

ـ كفاية، من فضلك، أنا مش بتكلم عن دوره البطولى ولا حد نقص من ده، أنا بتكلم عن طاقتك على التحمل، التشوه اللى

حصله، حيشعر بيه بعدين، حيعيش مهزوم ويدفعك انتى، أقرب الناس له تمن هزيمته وبكره تشوفى.

وبعدين أنا ماقلتش اتخلى عنه، لكن خلى بالك من نفسك المسألة مش ساهلة، سيبيه دلوقت أرحم.

أحسست بدوار خفيف يا «بهلول»، صمتَ وقد أنهكك التعب:

- أنا بحبه، عارف يعنى إيه بحبه!

قمت منتوياً الخروج من غرفته وعالمه أيضاً.

وقف منزعجاً:

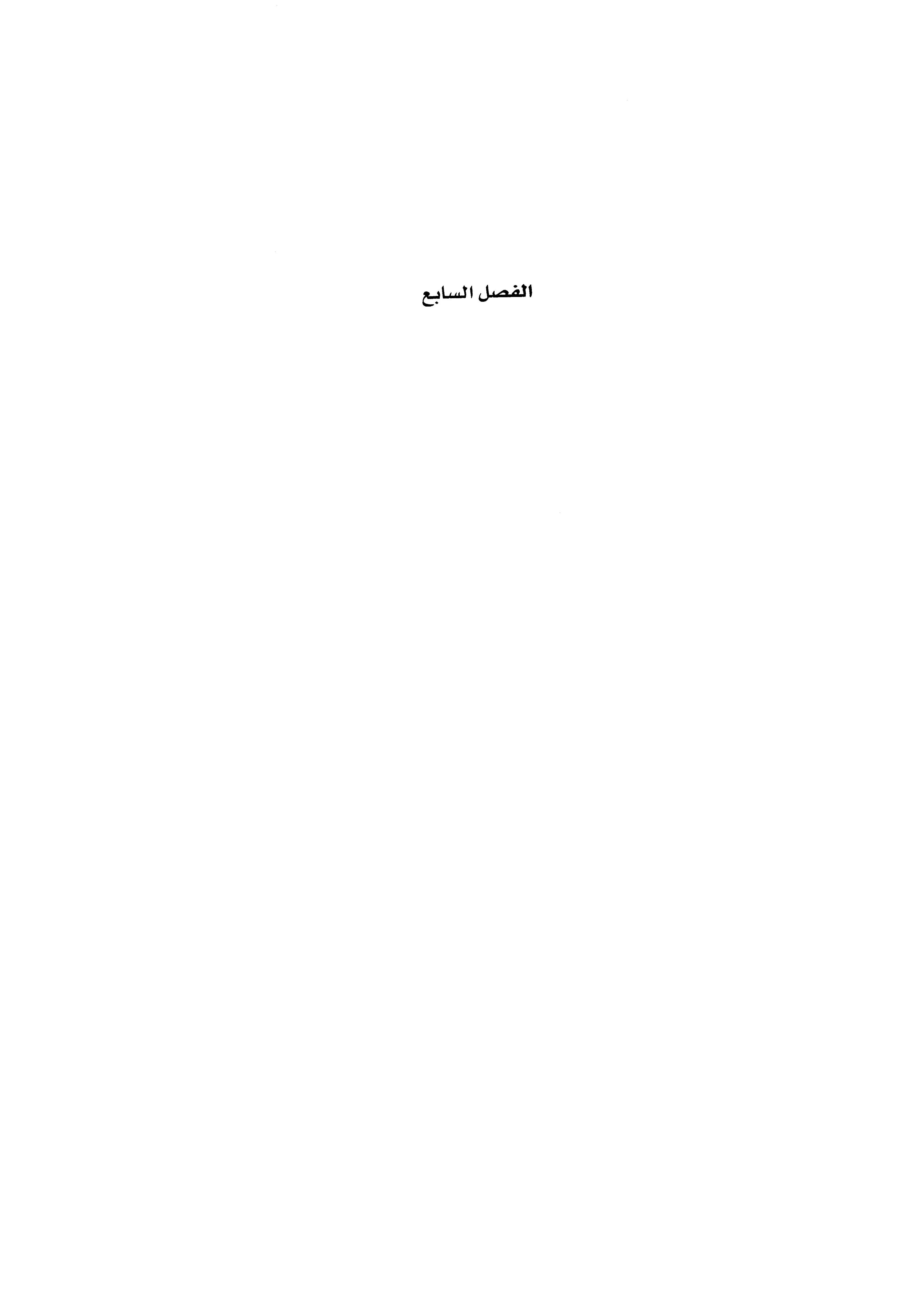
- استنى بس، أنا مقصدش أزعلك.

أعطيته ظهرك، وصوته يتبعك:

- والله إنك طيبة وساذجة وبكره الأيام تثبت كلامى.

أخذت الباب وراءك يا «بهلول»، وبمجرد أن خطيت عتبة البيت إلى الشارع، حتى نفضت عن رأسك كل ما جاء على لسان أخيك.





الفصل السابع

كالفأرة المذعورة انتفضت حين اضأت الحجرة يا «بهلول».

جرت نحوك، صاحت فى هستيريا:

ـ كنتى فين؟

ألقيت جسدك على الكرسى، مردداً:

ـ ادينى فرصة ألقط نفسى، أعملى ـ لى ـ كباية شاى لو سمحتى.

فى سرعة البرق، كان كوب الشاى الساخن بين يديك.

أخذتْ ترقبك وأنت ترتشف الشاى وتبلع ريقك مع كل رشفة.

انتبهت لصوتك:

ـ إلبسى هدومك.

اندفعت صائحة:

ـ طمنينى الأول

انتهيت من شرب الشاى، فركت شعر رأسك يا «بهلول».

ـ إلا قولى ـ لى ـ معاكى فلوس.

دارت حول نفسها، فتشت عن كيس نقودها، وجدته على المنضدة وضعت يدها داخله، أخرجت بعض الفكة.

صمتَ لحظات يا «بهلول»، نظرت إلى وجهها الشاحب ويدها القابضة على الفكة الصغيرة.

وقفت، نظرت فى ساعتك:

- أنتِ لسه مالبستيش؟

استدارت، ثم وقفت، قالت وعلى وجهها تبليمة:

- ما هو دا اللبس اللى حضرت بيه

وضعت كوب الشاى الفارغ على المنضدة يا «بهلول».

أعطتك ظهرها، رفعت بلوزتها، ساعدتها فى قفل مشبك حمالة الصدر، أنزلت بلوزتها وعليها سترتها.

وفى لمح البصر، كانت قدماها داخل حذاءها، تسمرت مكانها صائحة:

- أنا جاهزة.

مشيت خطوات، اطفأت النور، تأكدت من إغلاق الباب خلفكما.

المدخل معتم ودرجات السلم العمودية متعبة، وصلتما قبل الميعاد بدقائق.

الباب خشبى قديم، شراعته دائرية مكسوة بالحديد.

طرقت الباب أكثر من مرة، أطل وجه الممرضة بتجاعيدها المحفورة على وجهها وعينيها الغائرتين.

أغلقت الشراعة فى وجهيكما بعنف، استفزك سلوكها صحتَ وظلها خلف الزجاج:

- عندنا ميعاد مع الدكتور.

أخذت نفساً طويلاً وأنت تتلفت حولك، اصفر وجه «إنصاف» وزاغت عينها.

صوت سلاسل ومفاتيح تدار، واربت الممرضة الباب.

دخلتما بحذر، العيادة خالية، باردة كالقبر، يعلو العنكبوت الزوايا العليا لسقفها.

تنقل بصر الممرضة بينكما.

غمغمت:

- مين فيكم؟

أومأت برأسك حيث إنصاف واقفة مشدوهة.

شدتها من ذراعها:

- تعالي

صحت فى غضب يا «بهلول»:

- على مهلك.

لم تلتفت إليك، سحبتها كالبهيمة إلى حجرة على يمين صالة الزبائن، بلاطها اسمنتى وطلاؤها أصفر ورائحة عطنة تخرج منها.

أغلقت باب الحجرة فى وجهك.

دققت بشدة على الباب، فتح لك الطبيب، ارتبكت، كيف دخل إلى الحجرة من غير أن تراه، جُلت ببصرك سريعاً داخلها، اكتشفت باب جانبى صغير يفتح على حجرة الكشف.

عقد حاجبيه صائحاً:

- وبعدين؟

- عاوزه أدخل معاها، أرجوك.

جاء صوت الممرضة من بعيد:

- قلت لك ممنوع يا ستى.

لم تلتفت إليها يا «بهلول»، مشيت خلف الطبيب وهو يملأ سرنجة فى يده.

- من فضلك يا دكتور.

نفخ فى وجهكَ مغتاظاً:

- ادخلى، بس ماتعمليش حس، فاهمة.

- حاضر.

وقفت فى الركن، ترقب الموقف، الحجرة عارية إلا من سرير صاج من غير ملاءة، فى نهايته حمالتان حديديتان وإنصاف ممددة عليه، رافعة ساقيها على الحمالتين، أدارت وجهها نحوك حين سمعت صوتك.

نظرت إلى عينيها المتوسلتين، هازاً رأسك مطمئناً إياها.

سألت الطبيب:

- من غير بنج يا دكتور.

رد، دون النظر إليك:

- انت حاتدخلى فى شغلى، مش قلنا ماتكلميش وإلا أطلعك برة.

- أنا آسفة، نسيت.

اومأ برأسه إلى الممرضة بعد أن فرغ من حقن «إنصاف».

اخذتك على جنب:

- جاهزة؟

فتحت حقيبتك يا «بهلول»، أعطيتها الورقات النقدية فى يدها، وناولتهم بدورها للطبيب الذى ثبت النظارة على عينيه، بعد أن عدهم ورقة، ورقة، ثم وضعهم فى جيب البالطو الأبيض المبقع بالدم.

وضعت الممرضة صحناً غويطاً من الصاج أسفل ساقيّ إنصاف المرفوعتين على بطن منتفخة قليلاً وفرج منبت بالشعر.

غمس الطبيب يديه فى صحن صغير به غسول مطهر، موضوع على منضدة معدنية ذات عجلات، عليها شاش وقطن ومحاليل ومطهرات.

ساعدته الممرضة فى ارتداء قفاز بلاستيكى شفاف. أدخل يده البلاستيكية فى عنق رحمها، قلبها لحظات صائحاً:

ـ انتِ فى نهاية التانى، اتأخرت.

أخرج كفه البلاستيكية، نظر إلى وجه إنصاف الشاحبقائلاً:

ـ ها، نتكل على الله ولا فيه كلام تانى.

ردت إنصاف بصوت خافت:

ـ اتكل على الله يا دكتور. مفيش فايدة.

نظر الطبيب إليك يا «بهلول»، فاخفضت رأسك متمتماً:

ـ دى رغبتها يا دكتور.

أدخل الطبيب آلة حديدية رفيعة داخل رحمها، مع آهات متقطعة.

وضعت الممرضة منشفة صغيرة بين أسنانها، ضغطت بكفيها على كتفيها حتى تحد من تقلباتها المفاجئة.

كانت إنصاف تتنفس كدجاجة ذبيحة، بدأ الدم يتقاطر فى الصحن الصاج أسفل السرير، ثم اندفع الدم غزيراً تتخلله قطع صغيرة متماسكة.

حبست أنفاسك يا «بهلول» وأنت تبحلق فى وجهها الأزرق، وأنينها المتقطع وشعرها الملتصق بعرقها المتصبب.

صاح الطبيب بعد أن أخرج الآلة الحديدية الرفيعة:

ـ قطن بسرعة.

تركت الممرضة كتفى إنصاف، ومن على المنضدة المعدنية سحبت كيس قطن، فتحته وسدت بكمية كبيرة منه الثقب المندفع بالدم.

خلع الطبيب قفازه البلاستيكى، رماه على المنضدة، غسل يديه فى ماء مطهر صائحاً:

ـ شوية وتقوم زى الحصان.

ناولته الممرضة المنشفة، جفف يديه متلفتاً نحوك يا

«بهلول»:

- تقدر تروح.

خلع معطفه الأبيض المبقع بالدم، علقه على المشجب، ثم استدار فى اتجاه الباب الجانبى لحجرة الكشف.

أكملت الممرضة دورها، رفعت قطعة القطن المدماة، وضعت قطن جديد نظيف، أنزلت ساقيّ «إنصاف» من على الحاملين المعدنيين.

ألبستها لباسها، وضعت ذراعها حول خصرها وأسندتها حتى وقفت على قدميها، وجهها شاحب وجسدها قد نال منه الإعياء، محنية الظهر، كفها على بطنها، غير قادرة على التوازن. أسندتها يا «بهلول» من ذراعها، تركتها الممرضة معك، لتحضر جيبتها المعلقة على المشجب، ألبستها إياها، ومن الذراع الأخرى أمسكتها، ومشيتما معها حتى باب العيادة.

أظرفتَ الممرضة فى يدها زوجاً من الجنيهات، أجلست «إنصاف» على كرسى خشبى صائحة:

- دلوقت الهوا يفوقها.

وبعد دقائق معدودات، استندت «إنصاف» على ذراعك.

أغلقت الممرضة الباب بعنف خلفكما، نزلتما ببطء على السلالم، وبباقى المبلغ ألحقتها بتاكسى، وقبل أن يحتويها، همست فى أذنها:

- لو حد سألك عن التأخير، قولى كنتِ عندى، وتعبت.

أخفضت رأسها متمتمة:

- كتر خيرك، مش حانسى جميلك.

ربت على كتفها محدثاً السائق:

- وصلها لحد البيت يا أسطى.

تابعت العربة بعينيك حتى اختفت فى أحشاء الليل المباغت.

***

الوقت ساعة الظهيرة.

الميدان معبأ بالأتوبيسات والتروللى باصات المكتظة بالبشر، تنقلت من رصيف إلى رصيف - بخلع الكتف - يا «بهلول»، حتى وصلت إلى شريط الترام منهكاً، عظامك تئن عليك من ليلة البارحة التى نمت فيها كالقتيل حتى ثانى يوم الظهر بعد أن انزاح عن كاهلك موضوع «إنصاف».

كان الترام أخف زحمة، ومع ذلك ظللت واقفاً بين المقاعد وكلما اقترب الكمسارى، ابتعدت خطوات وعيناك فى كل الأحوال على الشارع، تتابعان البيوت الواطئة والعالية والمحلات والنواصى ورؤوس الأزقة.

وعند جامع الظاهر «بيبرس» نزلت وكنت دوماً تشم فى هذه المنطقة رائحة التراث والتاريخ، تسمع حوافر الخيل وتستنشق البخور وتتخيل «بيبرس» أميراً من الجان وليس مملوكاً، على حصان عربى أصيل - يهابه الأعداء وشجرة الدر وطاووسها الذى يقع فى شر أعماله والملك الصالح وقلعة صلاح الدين و.. ..

أفقت على سارينة عربة لورى، جعلتك تسرع الخطى لتلحق بميعاد الدرس.

وصلت إلى ممر طويل، ساقط على أرضه ظل البنايات العالية المحاوطة له.

وقبل نهايته بقليل، وعند بوابة حديدية لعمارة طرازها قبطى قديم، دخلت يا «بهلول»، العمارة مدخلها واسع، أرضيتها رخامية

بها مرآة كبيرة متربة وعلى باب المصعد ورقة معلقة «عطلان».

التهمت السلالم بقدميك، حتى وصلت إلى الدور السادس، وأنفاسك تتلاحق، وجدت أخو تلميذك، فاتح لك باب الشقة التى طالما جلست فى حجرة معيشتها، ومنضدة السفرة التى تشرح فيها الدروس وتنفر عروقك حتى توصل المعلومة وتطمئن أن تلميذك سوف يعدى الامتحان على خير.

كان فى الثانوية العامة، ضخم الجثة رغم صغر سنه وللمرة الثالثة يعيدها، ذو شعر كثيف وعينان سوداوان، دائماً يهرب من المدرسة ويجدونه أما فى السينما أو على نواصى الشوارع يتسكع ويعاكس البنات.

الشقة من الطراز القديم، السقف عال والحجرات برحة ومليئة بالطراز الكلاسيكى فى الموبيليا.

استقبلك أخوه الأصغر منه، لكن يسبقه فى الدراسة، نحيف، طويل وعيناه براقتان يعيشان معاً فى بيت جدتهما التى لم ترها إلا قليلاً لأنها دوماً تنفرد بنفسها فى غرفتها وتصلى.

الأب والأم غائبان فى بلاد النفط ولا ينزلان زيارة إلا كل سنة مرة.

طالعك أخوه كالعادة على باب المنزل، فهو يعرف ميعاد وصولك للدرس، فاغراً فاه ومصفف الشعر.

حين يمد يده ليسلم عليك، يقترب منك حتى يكاد يلامسك، تتراجع عنه خطوات يا «بهلول» وتوجه له نظرة حادة وحاسمة، يخجل منها ويبتعد على إثرها صائحاً:

- اتفضلى.

وينزل السلالم مسرعاً.

وعلى عكسه تماماً، يرتبك أخوه حين يراك، ويرمش كتلميذ

لم يقم بواجبه، ولأنه بطيء الفهم واستيعابه قليل، كنت أنت صبوراً معه يا «بهلول» ورغم ذلك هو التلميذ الوحيد بين تلاميذك الذى يرسب.

حاولتَ أكثر من مرة الانسحاب، لكنه كان يصاب بحالة عصبية وتشنج مما دفعك لمزيد من المثابرة معه، ربما...

فوجئت هذه المرة، بعدم وجود كتبه أو كراريسه على المنضدة الخشبية وهو واقف بملابسه كاملة تطل عليه علامات الخيبة.

بادرت بالكلام يا «بهلول»:

- أنت مش عارف أن فيه درس النهارده.

- أيوه يا أبلة، لكن

- لكن

- المره دى بس يا أبلة، وبعدين أوعدك أنى أعمل الواجب وكل حاجة.

زفرت غيظاً يا «بهلول»:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، فيه إيه يا بني

- فيه ماتش

- ماتش؟

- أحسن فريق وأجدع لعيبة، أخويا وصحابى سبقونى على الاستاد.

- بلاش كلام فارغ

- يعنى إيه يا أبلة؟

- يعنى وقت الجد جد واللعب لعب، اتفضل اقعد..

أزاح كرسى من قلب المنضدة:

طب اتفضلى استريحى يا أبلة.

جلست على الكرسى العتيق العالى الذى يبتلع حجمك الضئيل يا «بهلول»، تركك لثوان ثم جاءك بزجاجة بيبسى مثلجة.

- أنا آسف يا أبلة، أصل جدتى مش هنا، وكراسة الواجب جوا أوضتها.

بللت ريقك بالمثلج يا «بهلول» مدركاً أنه مادام قد وضع فى دماغه الماتش، فسيبحث عن أية حجة يتهرب فيها من الدرس ولن ينفع معه كلام وعزمت أمرك أن المرة القادمة تقابل جدته أو أخاه وتحسم معهما ألا تتكرر هذه الأعذار، وخاصة وإنك تشعر بعبء ثقيل تجاه هذا الدرس.

انتهيتَ من زجاجة المياه الغازية، وضعتها على المنضدة قلتَ:

- ميعادنا الجاى زى ما هو؟

- طبعاً يا أبلة.

وضع يده فى جيب سترته العلوى، ثم بنطلونه، أخرج رزمة فلوس، فر بعضها، مد يده بها إليك.

اندهشت يا «بهلول»:

- إيه ده، بتعمل إيه؟

- حقك يا أبلة

- لسه بدري

- أصل «بابا» بعت مصروفى زيادة الشهر ده، عشان قرب الامتحانات، وحضرتك ليكى درسين تاخديهم، ومقدم درسين، يبقى فلوس الشهر.

كانوا بالتناوب، جدته وأخوه أو هو، يدفعون مقدماً أحياناً حين تهل عليهم فلوس النفط، أو يتأخرون عليك حين تتأخر فلوس النفط أيضاً ولم تكن ترتاح لهذا الوضع، لكن مع الوقت

أصبح هو السائد.

أخذت النقود، عددتها، وضعتها فى حقيبتك الصغيرة لملمت أوراقك يا «بهلول» صائحاً:

- سلام عليكم، سلم على الحاجة وقلها متشكرين، وعلى الله المرة الجاية مايكونش فيه ماتش.

صاح وهو يمشى خلفك:

- دى آخر مرة يا أبلة، صدقينى والله.

استدرت فجأة عند خروجك على عتبة الباب وسبابتك فى وجهه:

- دا آخر اعتذار حاقبله فعلاً منك، الامتحانات على الأبواب.

هز رأسه:

- حاضر يا أبلة.

سمعت تصفيره ودندنته بعد إغلاق الباب، نزلت السلالم مسرعاً يا «بهلول»، متوجهاً إلى ميعاد الدرس التالى.

انتظرت كثيراً رقم الترام الذى يقلك إلى الميدان ومنه تستقل أتوبيساً آخر.

المهم، جاء ترامك يمشى الهوينا وكل نصف محطة ينزل الكمسارى ليعدل السنجة المخلوعة ويثبتها مكانها حتى كادت روحك تطلع يا «بهلول».

فى البداية، كان أتوبيسك واقفاً، جريت، قفزت داخله و«يدوب» لحقت مقعداً فى آخره بجوار النافذة.

كان الأتوبيس يمر على شارع الكورنيش، ألصقت وجهك فى زجاج النافذة وعيناك تلهوان مع مياه النيل، عشقك الأبدى وتوهجك.

تغتسلك مياهه، تطهرك، تحمل عنك أعباءك، هى الرحم

الذى خرجت منه إلى الحياة والذى تتمنى أن تصبح قطرة منه حين تموت.

وتأخذك التداعيات إلى براد الشاى والأهل والصحاب، والوابور والساندوتشات وفرش الحصير على النجيلة أمام النيل، والراديو الترانزستور والطبلة ونط الحبل ومضارب الكرة والكوتشينة ولعبة صَلّح والاستغماية.

وتضحك عالياً يا «بهلول» وتتحرك مياهه منتعشة بنشوتك، ويستمتع بلعبك ويستمع إلى دردشتك والصحاب إلى أن تغرب الشمس ويكون الفراق الجميل.

دقات منتظمة فوق دماغك:

- تذاكر

صاح الكمسارى بصوت عال، خابطاً بظهر قلمه على حاملة التذاكر الخشبية ويبدو إنه أعاد الخبط المرة تلو الأخرى وأنت شارد يا «بهلول».

قطعت التذكرة واعتدلت فى جلستك استعداداً للقيام استقبلتك أمهما، امرأة مشدودة القوام، يشوب بياضها حمرة، تضع طاقية كروشيه على رأسها وشالاً على كتفيها.

- أهلاً وسهلاً، اتفضلى يا بنتى، بيتك ومطرحك.

كان بيتها بسيطاً ذو فرش قليل، ترملت منذ سنوات وكان زوجها شيخ طائفة تسمى البهائية وموظفاً فى وزارة الأوقاف.

«سجن أكثر من مرة»، وتعيش هى وأولادها على معاشه وعمل الإبن الأكبر فى ورشة تطريز وبعض المساعدات من الأهل والأقارب تصل من بعضهم إلى حد الشهرية المنتظمة.

قبض على ابنها البكر منذ شهور، فهو على دين أبيه، كما كانت هى على دين زوجها.

وبمجرد أن سمعا صوتك، حضرا، ملابسهما نظيفة وكراريسهما فى أيديهما وفى نفس واحد قالا:

- مساء الخير يا أبلة.

كانا توأمين، ولد وبنت، ورثا بياض البشرة من أمهما وحمرتها لكن تقاطيع وجهيهما مختلفة.

كانت عيناهما تشعان ذكاء وسلوكهما غاية فى التهذيب، لا تجد مشقة فى استيعابهما للدرس، وتبذل جهدك يا «بهلول» لتقويتهما فى اللغة الإنجليزية نقطة ضعفهما وتتنبأ بمجموع عال لكل منهما وقد تحسن حالهما بالفعل فى استيعاب اللغة إلى جانب موادهما العلمية.

ويحلو لك شرب الشاى والدردشة مع أمهما بعد انتهاء الدرس. هذه المرة كنت منزعجاً من خبر القبض على ابنها البكر.

أخذت بخاطرها:

- أنا عرفت الخبر متأخر، الله يكون فى العون، شدة وتزول.

ردت بصوت رابط الجأش:

- السجن للرجالة، بكره يطلع هو وزملاؤه وينشروا حكايتهم ويبقوا زى الفل، قولى إن شاء الله.

لم يكن أمامك غير الصمت الحذر يا «بهلول».

أردفت:

- وبعدين، هو مش كل واحد حر فى تفكيره واعتقاده، احنا منتظرين دعوة جديدة.

رددت يا «بهلول»:

- والله احنا طلعنا لقينا أن محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء، وكل واحد حر فى عقيدته، زى ما بيتقال، لكم

دينكم ولى دينى.

هربت من المأزق يا «بهلول»، ولاحظت هى ذلك، قالت:

- آه، منك ومن مخك، بتريحينى ولا بتاخدينى على قد عقلى.

أكملت رشفة الشاى الأخيرة، وضعتَ الكوب الفارغ على المنضدة.

- دايماً

- هنياً ياختي

قصدت تغيير الموضوع يا «بهلول»:

- الأولاد مبسوطين

- طبعاً، بحسك معانا، إلا أنتِ ليكى كام درس عندنا

- يا ستى ماتشغليش بالك، ما بين الخيرين حساب.

تلعثمت قليلاً:

- أصلى عاملة جمعية، حاقبضها قريب، معلهش.. .. ..

- ماتكمليش، المهم الأولاد ينجحوا ونفرح بيهم.

انفرجت أساريرها:

- إن شاء الله.

وتخرج مودعاً إياها يا «بهلول» على ميعاد الدرس القادم، وفى داخلك خليط من مشاعر تجاهها، زهو بقدرتها على التحمل، وخوف عليها وعلى ابنائها الأذكياء من أفكارهم الغريبة.

حبات الهواء الباردة تنعش دماغك وتخفف من تعب اليوم.

أحسست بالجوع يا «بهلول»، عرجت على محل فول، كان نفسك هذه المرة فى باذنجان وبطاطس مقلى، أخذت لفة الساندوتشات وكانت زيادة عن كل مرة، فقد أوحشك أحمد، سوف تذهب إليه وتأكل معه مثل زمان، وفى المستشفى أصبحوا

يعرفونك ويدخلونك فى غير ميعاد الزيارة مع دس الجنيه فى يد «التمرجي» الذى يتقاسمه مع الحارس الواقف على الباب الخارجى.

شاهدته عن بعد.

عيناه الداميتان ورموشه المتآكلة جمرتين متقدتين، كتمت نفسك لثوان، وقفت فى ركن من العنبر جامداً حتى لا يظهر عليك أى تعبير بالخوف.

كان اثنان من الأطباء واقفان، أحدهما كبير السن والآخر صغير يمسك دفتراً فى يده والممرضة تقطر لـ «أحمد» فى عينيه.

- اعدل دماغك

صاحت وهى تحرك رأسه بكفها.

نزل السائل على وجنتيه، اضطرت الممرضة لإعادة التقطير.

- افتح عينيك

أراح رأسه على الوسادة، مغمضاً عينيه، الوجه مبدور بالشظى الأسود والرقبة وكذا الكفين، عظام جسده بارزة والساق الوحيدة مضمورة الفخذ، سوداء وكأنها سيخ متفحم.

اقترب الطبيب الكبير سناً من ساقه المبتورة، خلع الشاش كدت تتقيأ يا «بهلول» وأنت ترى المنظر، قطعة لحم مدلاة، رائحتها معفنة، تشوبها الزرقة والحمرة وجزء منها به ورم معبأ بالصديد.

مشاعر من الألم والشفقة والحب تعتمل داخلك فى وقت واحد.

انحنى الطبيب، تفحصها بإصبعه، متحدثاً باللغة الإنجليزية

والطبيب الآخر يسجل فى دفتره.

تركاه إلى سرير آخر، بينما الممرضة تمسح بقطنه معقمة الجزء المبتور وتلفه بشاش معقم.

وضعت إحدى ركبتيها على طرف السرير، مالت نحوه، لفت عينيه بالشاش.

نفخ أحمد مغتاظاً:

ـ تاني

هدأته:

ـ دا كلام الدكتور.

ـ ورجلى، ماقلش حاجة عنها.

سكتت برهة، ثم، أردفت:

ـ مش عارفة، احتمال يفتحوا الورم ويعملوا تنضيف.

صمت «أحمد» ورحلت الممرضة.

اقتربت بطيئاً من سرير أحمد، أحس بخطواتك، صاح وهو يلتفت لإيقاع القدم:

ـ «بهلول»

جلست على طرف السرير، يده الخشنة فى يدك.

ـ أيوه يا حبيبى، أنا جنبك

عظام وجنتيه البارزتين كانتا كالجمجمة المفرغة التى يسرقها التربى من المقابر ويبيعها لطلاب كلية الطب، وذقنه المسحوبة كمثل تلك الدقون الطويلة النحيلة للكهنة فى كتب التراث، والأشباح فى حواديت الأطفال وجسده من الضآلة وكأنه مسخوط.

زحف بمؤخرته نحوك يا «بهلول»، أطبق على كتفيك بكفين صلبين:

- قومى معايا

تحولقت عيناك:

- على فين؟؟

أطبق أكثر حتى آلمك:

- حطينى على الكرسى.

ألقيت نظرة فى اتجاه الكرسى المتحرك ذى العجلات الحديدية الصدئة.

أزحت كفيه، نهضت صاغراً إزاء رغبته الملحة.

قربت الكرسى من حافة السرير، لف ذراعه حول رقبتك يا بهلول، ضغط بقوة، ملت بجسدك محاولاً الثبوت معه على الكرسى المهتز.

حين استقام وضعه، صاح فى صوت هستيري:

- اجرى قدام

- فين؟؟

- مالكيش دعوة، اجري

أمسكت يديّ الكرسى المعدنيتين.

دفعته، تحركت العجلات فى الممر الضيق بين الأسرة المعبئة برائحة الدم والمخدر.

طرفت بعينك على رسغك، الوقت فى ساعتك يقترب من الحادية عشر مساء والممر الطويل يقترب من نهايته.

- اكسرى يمين

وكسرت يمين يا «بهلول».

رائحة البول والبراز المخلوط برائحة الدم المخزون تغزو صدرك.

- عندك يا دفعة

أوقفكما جندى يمر أمام دورة المياه، نحيل، قصير، أقروله كالح، أردف وهو ينتقل ببصره بينكما:

- على فين العزم، إن شاء الله

رد أحمد فى غضب:

- يعنى مالكش عين تميز، رايحين نسلم على الحكومة يا سيدى.

ضحك الجندى وهو يختلس نظرة وقحة إلى نهديك يا «بهلول»:

- طب ماتزقش

تفحصك من فوقك لتحتك، ماداً يديه نحو الكرسي:

- عنكِ أنتِ

رفع أحمد رقبته نحوك هامساً:

- معاكى فكه

أخرجت من جيب سترتك خمسون قرشاً، أخذها منك، وضعها فى كف الجندى. طبقها الجندى فى قبضة يده ومرق سريعاً، هازاً رأسه:

- ماشى يا دفعة

صاح أحمد على الفور:

- ياللا، اجرى، مستنية إيه؟

داست العجلات الأرض المبللة

- ادخلى قوام

أربعة أبواب مفتوحة داخل الدورة، الرائحة تزكم أنفك يا «بهلول»، المياه العطنة على الأرض، قاعدة الحمام فى المكان الأول مسدودة والحوض فى الدورة الأخرى معبأ بالمياه المتسخة وتفل الشاى وقطع القطن الصغيرة.

وصلت عند آخر باب مفتوح، تركت الكرسى، دخلت لترفع فتحة القاعدة، ثم عدت لتدير الكرسى من الخلف كى تستطيع إدخال أحمد، معتقداً أن ما يلى ذلك هو مساعدته فى الجلوس على القاعدة لقضاء حاجته.

شد أحمد ذراعك بعنف:

ـ اقفلى الباب.

الباب الخشبى متآكل وعال عن الأرض والأرض مبللة بالبول والمطهر والقطن المبعثر.

المكان ضيق، كاد الباب ينخلع فى يدك وأنت تحاول غلقه يا «بهلول».

ـ دورينى.

بصعوبة، أدرت الكرسى بحيث أضحى ظهره فى بطن الباب من الداخل.

شدك إليه، ارتعشت يا «بهلول».

ـ استنى، مش كده.

تكرمشت البلوزة بين أصابعه، صاح:

ـ اقلعي

رددتَ متلعثماً:

ـ ماينفعش هنا.

انخلع الزرار العلوى وهو يحاول فتحه وأكمل مسرعاً فتح باقى الأزرار، أخرج نهدك من حمالة الصدر وأخذ يعض فى قوة، مال بنصف جسده شاداً الجيبة لأسفل، طارت رأس السوستة وضعت يدك بين يديه مترجياً:

ـ خليها وقت تانى.

قطب حاجبيه، أضحت عيناه متحجرتين، ضغط على رسغك

ووجهه محتقن، جز على أسنانه:

ـ أنتِ فاكرانى مش راجل

غرقت فى عرقك المخلوط بخوفك يا «بهلول»

ردد:

ـ اقلعى.

خلعت بلوزتك وجيبتك، علقتهما على ظهر الكرسى.

رفع جلبابه حتى أعلى صدره، دفع يدك لأسفل كى تلامسه:

ـ شوفى بنفسك.

ابتعدتَ، تلاصقتَ والحائط مرتجفاً يا «بهلول».

ـ مبلمة ليه؟ تعالى اقعدى على حجرى.

جلست على حجره، محاذراً الساق الملفوفة بالشاش، تلاصق ظهرك المبلل بالعرق بصدره ولعابه وبدأ الكرسى يهتز بكما محدثاً تزييقاً مع رجرجة الباب الخشبى.

أفقتما على أصوات آتية من الممر.

وقفت منتبهاً يا «بهلول»، لملمت شعرك، ارتديت بلوزتك وجيبتك سريعاً.

الأصوات تقترب، أنزل أحمد جلبابه بسرعة وأنفاسه تتلاحق، حركت عجلات الكرسى يا «بهلول»، انفتح الباب الخشبى.

اندفعت خارجاً من دائرة الأرض المبللة بالبول والبراز والقطن الممزوج بالدم والمطهر وفى ثوان كنتما خارج دورة المياه.

دفعت الكرسى فى اتجاه الممر الطويل، تفاديت فريق الأطباء والممرضين وبعض الجنود.

وظللت تعدو سريعاً والعجلات تسبقك حتى وصلت إلى

سرير أحمد وهناك ساعدته فى الارتماء على فراشه غير عابيء بصياحه:

ـ على مهلك

ربتَ على رأسه وأنت تلهث:

ـ معلهش، أنا آسفة

شددت البطانية عليه:

ـ لازم أمشى حالاً

أمسك يدك، أفلتها منه ومشيت مسرع الخطى، متدارياً فى الحوائط، فى الوقت الذى وطئت فيه أقدام فريق المرور من الأطباء العنبر.

ما أن وطئت قدمك بلاط المنزل، حتى ضربت الحائط بقبضتك يا «بهلول»، إلى أن ورمت يدك وكادت تدمى.

تود لو انفتح على العالم الوسيع، وتطلق لساقيك الريح، وتجرى على العشب لتلحق بكُرة الشمس الذهبية المختبئة فى قلب الأفق.

فى بداية العشرينات لم تزل، وكاهلك قد انحنى من العبء المثقل على دماغك وقلبك البريء/ الحزين.

وقفت أمام المرآة المعلقة فوق الحوض، رأيت وجهاً لا تعرفه، شعر منكوش، عينان حمراوان، شفتان زرقاوان وخدود شاحبة.

انتفضت من مرآتك، جريت إلى نافذة المنور، شددَت الأسلاك الحديدية وعيناك تتطلع إلى شريط السماء الضيق بين أسطح البيوت.

تجمعت المياه المالحة فى عينيك، ونشيج قلبك يحمله الهواء حيث النوافذ الزرقاء لمبنى المستشفى والمخاوف أسوار

مدببة داخل روحك المنقسمة بين أحمد الطائر الطليق الذى تعرفه وأحمد الممدد على الفراش بعاهة نفذت إلى قلبه قبل قدمه، وبين أحلامك المحلقة فى سماء لا منتهية وانكساراتك المتكررة على صخرة الواقع اللعين.

أين أنت من نفسك الآن يا «بهلول»، وأين أحمد منك وأسرتك وصغيرك، كل فى مكان، وكأن زمنك انقسم شُتات وأضحى من الصعب جمعُه.

تسأل روحك الحائرة:

رب هذا الزمان ربى، أم لكل ربه الذى يصنعه هواه أو ألمه؟

أغلقت النافذة فى وجه البرد المهاجم، نظرت إلى ملابسك المفركشة، تحسست جسدك الذى تبعثر منك تحت سقف دورة المياه القذرة، بكيت بكاء مكتوماً بين الضلوع التى احتوت أحمد، آخر ليلة ذهب فيها إلى الجبهة.

فارقك، ليعود إلى فراق جديد، هو الآن قريب، والبعاد ثالثكما، كالجمرة الباردة، المهددة بالاشتعال فى أى وقت.

لا وقت للحزن، رددتَ يا «بهلول»، مسحت بظهر يدك دمعتك. تمخطت فى خرقة بالية، وارتميت كما أنت مهرولاً داخل ملابسك على الفراش، وضعت الوسادة فوق رأسك، مستحلفاً النوم أن يأتيك ويكسر قيد زمنك الضيق.

الفصل الثامن

ارتديتَ الهدوم النظيفة المكوية يا «بهلول»، صففتَ شعرك، وضعتَ بعض الأحمر على الشفاه والخدود، طويتَ الجريدة تحت إبطك، وسرت فى اتجاه الإعلان:

«سكرتيرة حسنة المظهر، تجيد إحدى اللغات و...»

عبرتَ الشارع المبلل بمطر الأمس، مشيتَ فى ممر طويل معتم، كان المحل تحت بناية قديمة، واجهتها متآكلة، رمادية اللون ورغم طرازها الكلاسيكى، إلا أنها تبدو كالقصر المسحور المغطى بالعنكبوت.

وصلتَ متأخراً، استشعرت خوفاً وأنت تمدَ رأسك داخل بابه الموارب لتجده صامتاً إلا من خرفشة قطة تتقافز على الأرفف خلف فأر صغير، مرق تحت قدميك سريعاً، سقف المكان خشبى وضوءه خافت.

اندفعت جانباً حتى لا تهبشك القطة، اصطدم الباب بالحائط.

- مين بره؟

وقفت مبلماً أمام الأرفف المتربة والملابس المبعثرة والصوت الآتى من بعيد وغير معروف مصدره.

ومن باب واطىء أشبه بباب سرداب، خرج رجل أسود قصير بدين، كرشه أمامه وعينيه جاحظتين، شاداً بنطلونه الذى يصل لأعلى صدره بحمالات استك.

نظر إليكَ من أسفل لأعلى، وعند منطقة الصدر، طال بصره.

ـ فيه حاجة؟

صمتَ يا «بهلول» وأنت تتلفت حول نفسك.

أخرجَ من جيب قميصه العلوى بايب، فتش فى جيوب بنطلونه أخرج لفافة تبغ، وضع منها فى البايب وأخذ يدخن غليونه والدخان الأزرق يتصاعد، ويتصاعد معه غيظك المكتوم.

صمتَ:

ـ أنا جاية بناء على الإعلان، سحبت الجريدة من تحت إبطك، قربتها من وجهه وتحت الإعلان كنت قد وضعت خطاً أحمر.

أشاح الجريدة بيده، ضاحكاً:

ـ مستعجلة على إيه، مش لما نعاين البضاعة الأول.

استقرت عيناه على نهدك البارز

لملمتَ الجريدة.

ـ يظهر انى جيت مكان غلط

قاطعك:

ـ احنا بتوع الإعلان فعلاً، والعنوان مضبوط، البنات بيحضروا على هنا الأول وبعدين نشحنهم على هناك.

لفَ حولك قائلاً:

ـ بس انتى جايه بدرى قوى، مفيش حد لسه وصل.

صمتَ يا بهلول، احتويت المكان فى نظرة دائرية، كانت الكراتين معبئة بالملابس المكدسة والعلب المغلقة مبعثرة فى كل مكان، وبعض تحف صغيرة، باهتة متربة على الأرفف.

قلت:

ـ أنا مش فاهمة حاجة؟

ـ تعالى بس

قالها ممسكاً ذراعك.

نفضت ذراعك عنه.

ـ تعالى، انت زى بنتى.

أجلسكَ على كرسى مترب بجوار الباب الواطيء واختار هو كرتونة مبرشمة جلس فوقها فى مواجهتك.

صاح والغليون فى يده وفمه محشو بالدخان:

ـ احنا لازم نفتح على الدنيا من هنا ورايح.

حين رأى علامة الاستفهام لم تزل على وجهك، أردف:

ـ ماسمعتيش خطاب الريس، قال انه حايفتح الباب على وسعه.

تذكرت انك لم تعد تتابع منذ فترة أية أخبار أو معلومات، لكنك تذكر يا «بهلول» أنك قرأت ـ ذات مرة ـ فى مجلة ما، عن فتح الفرص أمام رؤوس الأموال والاستثمارات المتعددة الجنسية، وعاقكَ انشغالك بالبحث عن «أحمد» بين مكاتب الأسرى والمفقودين شهوراً طويلة بعد انتهاء الحرب، ثم مفاجئتك بإصابته التى منعتك عن متابعة التحولات الاجتماعية فترة زمنية ليست بالقليلة، حتى المواعيد السياسية تخلفت عنها، وانغماسك فى البحث عن عمل جديد ودخول الامتحانات. يا الله.. كل هذا تكركب فوق نافوخك يا بهلول، وساهم بدور كبير فى عدم متابعتك للأخبار.

والآن.. أنت أمام هذا القرد القصير، وعمل لا تعرف كنهه ولم تعد الورقات النقدية القليلة للدروس التى تعطيها لبعض التلاميذ كافية لأجرة الغرفة ولقمة العيش والمواصلات، وزاد

وغطى عليك، إصابة أحمد، كنت متشوقاً أن ينتهى من تجنيده ويحمل القفة معك، وها أنت لا زلت تحملها لوحدك، وتخشى سقوطها منكما أنتما الاثنين.

قطع شرودك صوت القصير الأشبه بالضفدع:

- تعرفى لغات

رددت بنفاد صبر:

- يعنى، أعرف لغة جنب العربى.

تجشأ، هرش فى شعره:

- أيوه، لازم طبعاً، احنا بنتعامل مع خواجات.

امتعضت يا «بهلول»، شاخصاً بعينيك على الحوائط الصفراء المتآكلة والأتربة المعلقة على الشترينة والكراتين المبعثرة.

دارت عيناك صحت مستاء:

- بس المكان هنا...

أخذ نفساً من غليونه، زفر فى وجهك:

- مانا قلت لك المكان مش هنا يا حلوة، المكان فى حتة «هاى لايف».

رفع ذراعه لأعلى مردفاً:

- فوق، فوق قوى.

دار حولكَ وحشرجة صدره تصلك:

- على فكرة، انتى ييجى منك.

تراجعتَ بظهرك حتى كدت تلتصق بالحائط:

- مش فاهمة

قهقه:

- بكره تفهمى.

استعدتَ هدوءَك يا «بهلول» وبدأت فى ترتيب أفكارك مقرراً بينك وبين نفسك أن تأخذ الكداب حتى باب الدار، والا تركبك الأوهام قبل أن ترى بعينيك المكان الآخر.

قلتَ:

- ممكن أعرف المكان «الهاى لايف»؟

فرك شعر رأسه:

- النهارده الخميس، حانسيب الجمعة ويوم السبت تكونى فى شارع الأنهار، حتلاقى كبابجى على الناصية، تكسرى شمال، تمشى شوية، أول عمارة تسيبيها والتانية وعند التالتة فى أول دور نمرة ٤ قصاد محل أطفال، حتلاقى يافطة متعلقة «البرغوت للتصدير والاستيراد».

رفعت عينيك اندهشت للاسم، هز القصير رأسه:

- آه.. اسمه البرغوت، مش فيه واحد اسمه الحيوان، وواحد اسمه حشيش.

هززت رأسك بدورك يا بهلول:

- وفيه ملوخية.

أخرجتَ من حقيبتكَ ورقة وقلماً وسجلتَ العنوان وسرت فى اتجاه الباب، ثم توقفت فجأة، مستديراً إليه:

- والمرتب؟؟

سعل سعالاً متقطعاً مخلوطاً بالدخان:

- مرتب إيه وهباب إيه، مش لما نتفرج على شغلك الأول.

اقترب منكَ:

- وبعدين ماتستعجليش، بكره، الفلوس تجرى فى ايديكى، وانتى وشطارتك.

أردف، مشوحاً بيده:

- اتكلى على الله، لسه حنشوف بنات غيرك وتبقى ألسطا.

صوب بصره إلى جسدك بعينيه الجاحظتين.

كدت تنفعل عليه، لكنكَ، فضلت الخروج من المحل الأشبه بالكهف والبعاد عن هذا القرد القصير.

مشيتَ فى الممر المعتم الذى أتيت منه.

عبرت الشارع لِتقلَ الأتوبيس متمتماً بالمثل الشعبى كى تطمئن نفسكَ «يا خبر بفلوس، بكره يبقى ببلاش».

على باب المستشفى، عرفته من مشيته، مشية أهل البحر، يفرد صدره فى وجه الدنيا ويطوح بيديه وساقيه، وله إيقاع خاص فى السير.

تعلقت فى رقبته، بكيت على صدره، ربَتَ على رأسك يا «بهلول» وهو يبذل جهداً فى كتم دموعه التى انفلتت منه.

كان فارع الطول، ذو كتفين عريضين وعينين بلون الشمس.

تذكرت حين سافرتَ - ذات مرة - فى زيارة خاطفة مع «أحمد»، أنه أول من رأيته على بعد خطوات من البيت، كان يرتدى أفَرولاً كاكياً وخوذة على دماغه، ملفوف أعلى ذراعه قماش أخضر، مطبوع عليه «دفاع مدني».

هو أكبر اخوته، لم يكمل تعليمه حتى يستطيع مساعدة أبيه الذى يقف فى كشك سجائر من طلعة النهار حتى منتصف الليل إلا قليلاً.

يقول عنه أحمد: انه أقسم برأس أخيه الشهيد أن يأخذ بثأره وثأر البلد.

ضرب كف رجالة لـ أحمد، وبنفس الكف الخشنة سلم عليكَ يا بهلول، مستئذناً بأن عنده تدريب وسيعود بعد ساعتين وعلينا أن ننتظره.

عرجت وأحمد على كشك السجائر، حيث والده يقف فرحاً، ابتسم، فظهرت سنته الفضية والغمازتين.

احتوى ابنه فى صدره، مربتاً على ظهره بكف حانية والدموع تتجمع فى عينيه:

- حمد الله على السلامة، نازل إجازة.

- يدوب يومين.

انتبه، أنك واقف بجواره، ابتسم:

- أهلاً بعروسة ابنى.

احتواك ببصره للحظات وأنت تحمر خجلاً وعينيك على الأرض:

- حمار وحلاوة، قشطة صلاة النبى.

ضحك، ناظراً لابنه مزهواً:

- طالع لابوك.

لف «أحمد» ذراعه حول رقبتك، ثم بقوة نحو خصرك:

- عيب، هو احنا بنلعب.

كان أبوه، قصير القامة، مائلاً للبدانة، يرتدى جلباباً واسعاً وجهه مدور ورقبته قصيرة تكاد تلتصق بصدره:

- تشربوا شاي

رد أحمد:

- مفيش داع، يدوب نخلص مشوارنا و....

هز أبوه رأسه مبتسماً.

أردف «أحمد»:

ـ نبقى نعوضها لك مرة تانية يا اسطى.

تنهد أبوه تنهيدة طويلة، أمسك كوب شاى ساخن كان يضعه على كرسى داخل الكشك، أفرغ بعضه فى صحن وشفط إياه بصوت مسموع.

لاحظ «أحمد» الدهشة المرتسمة على وجهك يا «بهلول».

ـ علشان يبرد.

توقف الأسطى عن الشفط:

ـ انتِ فى سنه كام دلوقت يا بنتى.

سارع أحمد بالرد:

ـ دى لسه تلموذة صغننونه، يادوب طلع لها درس العقل.

مطمطت شفتيك، انتفخت غيظاً.

ضحك الأسطى.

دبدبت على الأرض وقد حولقت عينيك.

علا ضحك الأسطى حتى سعل وأدمعت عيناه:

ـ أما انتى «بهلول» بجد!

احمرت أذناك وأرنبة أنفك:

ـ مش قلنا اننا بنت، بلاش بهلول دي؟

رد أحمد:

ـ انت ورده زى الفل يا بهلول ولا تزعل..

ضحكَ وأبوه، فضحكت بدورك يا بهلول معهما.

فتح الأسطى درجاً داخل الكشك، أعطى لابنه فى يده ـ على جنب ـ زوجاً من الجنيهات.

حاول أحمد أن يتملص بيده منه، لكن الأسطى شد عليه، فأطبق أحمد يده عليهما صامتاً.

ربتَ أبوه على كتفه:

- خلى بالك من نفسك.

تأملك وأحمد يا بهلول بعينين صافيتين:

- ربنا يهدى سركم.

ومرت الساعتان، ولم يحضر أخوه الأكبر «مجاهد»، هكذا هو، كما حدثك «أحمد» عنه، لا يستقر أبداً فى مكان.

وبالفعل يا «بهلول»، فى كل مرة تزور أهل أحمد لا تلقاه إلا لماماً، وإن وجدته، يفرد جناحيه كطائر طليق، يعد بالعودة ولا تعرف له طريقاً فى سماء المدينة، مرة عند خطيبته ومرة فى وحدة الدفاع المدنى ومرات يلقط رزقه على البحر مع «البمبوطية» وما يحصل عليه يجود بأغلبه على بيت العائلة، علب بولوبيف، سمنة افرنجى، مربى، لبن بودرة من بره، أدوية، ساعات امريكانى على روسى على هولندى، ساعات، مرايات، بلوزات وبناطيل، أية مركبة فى الميناء، فى غدوها ورواحها، يلقط رزقه منها ويساهم فى ميزانية البيت وتعليم اخوته فى الجامعة والصغار منهم.

أفاقك صوته على باب المستشفى من تداعياتك الصغيرة:

- الحاجة فوق وسميحة والأسطى.

سارعت بالسؤال:

- والولد معاهم.

أطرق:

- طبعاً.

جريتَ، تسبقه على السلالم وهو يتبعك، جريت داخل الممر الطويل للعنبر، توقفتَ وأنفاسك تتلاحق أمام اللمة المنصوبة حول سرير «أحمد».

ابتعلت شهقتكَ وأت ترى ساق أحمد المبتورة وقد عادت

إليـه تحت البطانية، غمـز إليك بعينه السليمة بعد رفع الضـمادة عنها، فسكت يا «بهلول» محاولاً الإلمام بالموضوع.

كان وجه الحاجة كتلة صخرية تتعرجها مياه مـالحة منهمرة من عينيها.

لم تزل ترتدى السواد منذ استشهاد ابنها البكر ولم تفكر فى استبداله.

و«سميحة» عاقدة شعرها، وجهها شاحب وعينيها منطفئتين، تحتضن صغيرك فى صدرها وقد لفته ببطانية صغيرة.

جريت نحوها، لتأخذه منها، صاحت:

ـ على مهلك، دحنا ماصدقنا نام.

رفـعت الـبـاطـنـيـة عـن وجـهـه بهـدوء، كان قـد ازداد جمـالاً وشـروقاً، ورموشـه السـوداء الـطـويلة مـدببـة والـحاجـبـان مـقفـولان كشـأن أهل أبيـه، أما أنفـه وفمه وجبهته العريضـة فهى لأهـل أمه، وشعره لخاله.

كان مـمتلئاً، صـحته جيدة، ولـم لا، والـحاجة كمـا هـو مـعروف عنـها، فائقـة العنـاية والنـظافة بكل ما حولـها عنـاية تصل إلـى حد الوسوسة أحياناً.

خرجت من تأملك لـحبيبك الصغير، تركته يهنأ فى نومه بين أحضان عمته.

اقتـربـت مـن الـحاجـة الـجـالسـة علـى طرف السـرير، مـددتَ يدك:

ـ حمد لله على السلامة يا نينة.

لملمت الطرحة على وجهها، ردت وهى لا تحيد ببصرها عن ابنها:

ـ الله يسلمك.

صاح الأسطى الذى كان واقفاً فوق رأس ابنه وقد غابت عنه غمازتى ابتسامته وسنته الفضية:

ـ اللهم انى لا اسألك رد القضاء وإنما اسألك اللطف فيه.

أعدت النظر إلى تلك الساق التى ظهرت فجأة تحت البطانية، تأملتها، وجدتها رفيعة جداً وطويلة، أطول من الساق الأخرى.

نظرت إلى أحمد مرة أخرى، عض على شفتيه وهو يهز ـ لك ـ رأسه.

أطبق السكون على الجلسة.

أشار إليك أخوه أن تتبعه، مشيت وراءه وخلفكما سميحة بعد أن تركت الصغير فى حجر الحاجة.

دخلتم بلكونة صغيرة فى منتصف العنبر.

أمسك أخوه السور الحديدى بكلتا يديه، جازاً على أسنانه:

ـ ولاد الكلب، حيدفعوا التمن غالى.

حاولتَ أن تخفف عنه يا «بهلول»:

ـ وبعدين يا بطل، دا الواحد بيستمد شجاعته منك.

اقتربت منه أكثر هامساً:

ـ إلا، إيه حكاية الرجل اللى طلعت لأحمد فجأة تحت البطانية.

استدار نحوك، اقتربت منكما سميحة، نظر إلى بعيد حيث الحاجة لم تزل جالسة فى العنبر، ثم تحدث بصوت خافت:

ـ لما عرفنا الخبر فى البلد، أصرت الحاجة تحضر، رغم محاولاتنا المستميتة لإبعادها، وتفهيمها أن إصابته بسيطة وحيرجع لها قوام، وقصاد تصميمها وافقنا.

لكن سبقتهم أنا على المستشفى، قبلها بيوم، وقعدنا أنا وأحمد نفكر فى خطة، تمنع عنها الصدمة، عملنا أكثر من بروفة

لعصاية طويلة نثبتها تحت البطانية، دورنا على إيد مقشة، وساعدنا الممرضين فى العملية دى واتعاونوا معانا، لحد ما أصبحت كأنها رجله التانية.

أكملت سميحة:

- أصلنا خايفين عليها لتقع من طولها لما تعرف الخبر.

تنهدت سميحة مردفة:

- وعلى العموم، الحمد لله أنها جت على كده، دحنا كنا فقدنا الأمل فى رجوعه.

ردد مجاهد والدمعة مختنقة فى عينه:

- الحمد لله بس المهم اخونا أحمد ماينساش ويحرك رجله العيرة وإلا نتفضح. ضحكت سميحة، فابتسمت بدورك يا «بهلول» والوخز فى قلبك.

ضحك «مجاهد» بصوت مسموع، فأشرقت الشمس فى عينيه العسليتين، صاح:

- على العموم، أنا مثبت العصاية كويس، ربنا يستر وما..

قاطعته يا بهلول:

- ايوه يا عم، ما انت واخد على الطوارىء دى فى الدفاع المدنى، ولولاكم جنب الجيش المصرى لكان الحال غير الحال.

أخذ نفساً قوياً، قال مزهواً:

- يا ستى كلنا فدا البلد.

ثم لمعت عيناه بنشوة الفرح الوليد، فرد منكبيه مردفاً:

- دا كان تار بايت بينا وبين العدو، من يوم ما استشهد اخويا فى ٥٦، وانضربت بيوتنا واتهجر ناسنا فى ٦٧ وانا بنام عين مفتوحة وعين نايمة وقعدت سنين اتدرب لحد ما جه اليوم ووقع العدو زى الجاموسة بعد ما خد العلقة التمام اللى تخليه يفكر

ألف مرة قبل ما يعودها تانى.

لحظات صمت، شرد فيها كل واحد مع نفسه قليلاً.

قطعت سميحة الشرود:

- أنا خايفه على ماما.

طمأنها مجاهد:

- ماتخافيش، أنا مثبت الـ...

ولم يكمل جملته، إلا والصراخ اندفع كالصاروخ من العنبر. جريتم إلى الداخل، الواحد وراء الآخر، كانت الحاجة خالعة طرحتها والصفير على طرف السرير، وهات يا لطم على خدودها وصويت، والأسطى يحاول تهدئتها دون فائدة، وأحمد محتاس بالعصا التى وقع نصفها وتدلى خارج البطانية.

انشغل العنبر كله بصراخها، والكل حولها يحاول إسكاتها دون جدوى.

حضرت الحكيمة جرياً وراءها ممرضة على الصوت، حاولت التهدئة، لم تتمكن. صاحت متنقلة بين أفراد العائلة:

- لو سمحتم كلكم بره.

اقترب الأسطى منها:

- معلهش يا بنتى، أصل الصدمة شديدة عليها.

استمرت فى الشخط والنطر:

- يافندم احنا عندنا أوامر محدش يعمل ازعاج هنا، والصويت والندب ده بيأثر على بقية المصابين وحالتهم النفسية بتسوء أكتر وبعدين دى أوامر ولا عاوزنى اتئذى بسببكم.

صاح مجاهد:

- يا ستى، محدش يرضى بكده، احنا بنقول لك قدرى حالتها، هى زى أمك برضه.

تطلعت الممرضة السمراء الطويلة، ذات العينين البندقيتين إلى طول «مجاهد» الفارع وصدره المفرود.

خفضت صوتها:

- طب خدوها بعيد فى الطرقة لحد ما تهدا.

أمسكها الأسطى ومجاهد كل من ذراع سحباها خارج العنبر، تتبعهم الممرضة والحكيمة وظللتَ وسميحة مع أحمد يا «بهلول».

صوصو الصغير، فأخذته فى حضنك مهدهداً إياه يا «بهلول».

صاح أحمد وعينيه متلهفتين على حمله:

- قربيه منى.

أعطته إياه

قالت سميحة:

- ميعاد رضعته قرب.

أخرجت من الحقيبة الجلدية الكبيرة على الأرض، «ببرونة» صاحت:

- حاشوف أسخنها فين وأرجعلكم.

تأمل «أحمد» عينا صغيره السوداويتين ضمه إلى صدره مستنشقاً أنفاسه البريئة. تجمعت دمعته فى ركن العين.

جلست قربهما يا «بهلول»، والصغير يتوسطكما

هدهده أحمد:

- بس، بس، بكره تكبر وتبقى راجل قد الدنيا.

حين هدأت أنات الصغير، قال «أحمد» وعينيه تضمانك بدفئهما:

- تعرفى يوم ما بعتى برقية على الجبهة بميلاده، لميت كل السجاير اللى معايا وفرقتها على زمايلى، وحلقت دقنى بموس كنت

مخبيه فى الخندق مع السجاير وعملتلهم أجدع شاى شربوه فى حياتهم، وقعدنا نغنى بصوت واطى ونضحك احتفالاً بقدوم ولىّ العهد، ويدوب دقايق مرت إلا ونزلت علينا غارة سوده، كتمتنا كلنا.

نظر إلى صغيره، هدهده مردفاً:

ـ كان الوضع فى أسوأ حالاته والقذف مستمر دون توقف على الجبهة، وفضلنا ننتقل من موقع لموقع لحد ما جت الطوبة فى المعطوبة ودخلت ودُفعة معايا حقل ألغام، كان هو سبقنى بخطوتين، انفجر جسمه قصادى فى الهوا، وأصبح زى حتة الفحم المولعة المنطورة فى الريح، ادورت علشان أرجع، دُست بطرف رجلى على لغم أفراد، لقيت نفسى فوق عند ربنا ونازل زرع بصل ومعرفش بالضبط إيه اللى جرا ليا، غير أن جسمى كله مولع نار، وبيتصفى دمى.

أدركت أنه يحتاج إلى الفضفضة يا بهلول، فتركته يسترسل فى كلامه وأنت تنصت بكل اهتمام إليه.

ـ نقلونى بسرعة ـ حسب ما سمعت بعد كده ـ على موقع طبى تحت الأرض، ولما استمر النزيف وساءت حالتى خدونى على اقرب مستشفى فى بلد اسمها «القصاصين» وطبعاً كان جسمى كله متفحم ومليان شظى، وزى ما انت شايفه قدامك، راحت رجلى وعينى وخدت شظية استقرت فوق عصب فيها، وضاعت كل أوراقى والبرقية وصورتك وماكانش فاضل غير حتة الحديدة المتعلقة فوق رقبتى ورقم وحدتى.

دفست ـ رأسك ـ فى صدره يا بهلول، ضمك وصغيركما بقوة بين ذراعيه.

افقتما على صوت سميحة و«الببرونة» الساخنة فى يدها:

ـ أجدع من فيلم «سنجام» والله العظيم.

ضحكتما وتزحزحت قليلاً عن أحمد يا بهلول، أخذت سميحة الولد من بين ذراعيه، جلست على طرف السرير، ثبتته فى حجرها وأخذت ترضعه وهى تهز ساقيها ضاحكة:

- الحب اقوى من عضة الكلب.

علا ضحككما يا «بهلول»، لم يقطعه سوى الأسطى الذى أتى مهرولاً:

- يا لـلا يا سميحة يا بنتى، لمى حاجتنا، احنا مروحين دلوقت.

استدارت برأسها نحوه وكانت قد انتهيت من إرضاع الصغير وقلبته على بطنه وهدهدته بيدها على ظهره.

- قصدك إيه؟

أمسك الأسطى يد الحقيبة:

- اللى سمعتيه، يالـلا مفيش وقت، أمك فى حالة سيئة وضغطها زاد.

قال الأسطى وهو يحمل الحقيبة الكبيرة ويترك أكياس الفاكهة ولفف الحمام المحشو والمحشى وقطع الفطير الذى صنعته الحاجة بيدها.

نظر الأسطى إليك يا بهلول بعد أن قامت سميحة والصغير فى حضنها ملفوف بالبطانية الصغيرة.

- وانتى خليكى جنب أحمد لحد ما يقوم بالسلامة.

وقفت على حيلك يا بهلول، اقتربت من سميحة والصغير:

- طب سيبوا الولد معايا.

تنهد الأسطى، متنقلاً ببصره بينك وأحمد يا بهلول:

- يا بنتى الولد فى الحفظ والصون معانا وانتى مش حتقدرى تراعيه لوحدك فى الظروف دى.

رد أحمد:

- هو عنده حق يا «بهلول» بكره لما تخلصى امتحانات، أكون أنا كمان بقيت كويس ومين عالم يمكن نسافر لهم سوا.

رفعت طرف البطانية عن وجه صغيرك النائم، قبلته فى جبينه، ثم قبلت سميحة فى وجنتيها.

أنزل الأسطى الحقيبة على الأرض، سلم على ابنه، احتضنه:

- أشوف وشك بخير ومنتظرينك.

وصافحك قائلاً:

- خلى بالك منه ومن نفسك.

علق الحقيبة فى يده مرة أخرى، جرى فى الممر الطويل للعنبر، وسميحة حاملة الولد المهتز على كتفها تحاول اللحاق به.

جريت على الشرفة يا «بهلول»، رأيت الحاجة مسنودة على كتف مجاهد وأمامها سيارة أجرة وسميحة والأسطى يجريان على الرصيف للحاق بهما.

لوحت لهما قبل أن ينزوا داخل العربة ويختفون فى زحام الشارع.

عدت إلى «أحمد»، طفرت دمعة منك، أجلسك، ربت على كتفك مهدئاً إياك:

- بكره تشبع منه يا سى بهلول.

بكفك الحانية ربت على صدره:

- أسيبك تستريح شوية.

شد البطانية أعلى صدره وقد بان على وجهه الإرهاق:

- ماشى.

أعطيت للعنبر ظهرك يا بهلول وشوق لا يهدأ يرحل خلف صغير/ أليف من دمك غادرك داخل عربة.

الفصل التاسع



كانت واقفة على الباب تنتظرك، أشبه بخيال المآتة فى نحالتها وكتفها المائل.

عيناها المسحوبتان السوداوان أهم ما يميزها، تحمل حقيبة جلدية مربعة فى يدها.

- خير كفا الله الشر يا فاطمة.

صحتَ يا «بهلول» وأنت تدير المفتاح فى الكالون الصدىء للباب.

قالت وصوتها مخنوق:

- جيت اقولك اشوف وشك بخير، حاكم مش حعاود هنا تانى.

التقطَ أنفاسك صائحاً:

- نتكلم جوا

أخذت الحقيبة المربعة الثقيلة من يدها، وضعتها فى الداخل على الأرض.

أغلقت الباب خلفكما فى وجه المنور المعتم.

جَلَستْ على طرف مقعد ضامة ساقيها وعينيها شاردتين فى اللامكان.

جلست على حافة السرير قبالتها يا بهلول، خَلَعْتَ حذاءك، بلَعتَ ريقاً مراً إذ كنت لم تزل مشدوداً بحنينك إلى صغيرك الذى رحل لتوه تاركاً شعوراً بالفقد باتساع الأرض.

جلستما صامتتين، وثمة أغنية آتية من شباك الجيران:

«فلاح كان ماشى بيغنى من جنب السور، شافنى ونا بزرع كام وردة فى طبق بنور، قطع الموال وشاورلى وقال: يا صباح الخير ياهل البندر، يا صباح النور».

استرخيت يا «بهلول»، قلتَ:

ـ فاكرة يا فاطمة الغنوة دى، كنا بنغنيها ليكى أنا والبنات ونقولك ان الفلاحين أجدع من الصعايدة، تقومى تشخطى فينا وترطنى بكلام غامق ونقعد نضحك وترسى المسألة على نكتة عن الصعايدة.

ضَحكَتْ، لمعت عيناها السوداوان المسحوبتان وبعدها بثوان، احتقنت عيناها بالدموع، صاحت:

ـ والله فراقكم صعب.

ـ ودراستك يا فاطمة؟

أطرقت:

ـ بوى وعمى، مصَمَمين على دُخلتى على ولد عمى، بيقولوا كفاية علام لحد كده وإلا محدش يقدر يلمنى.

ـ وأنتِ رأيك إيه؟

ـ أنا حاولت مع أمى وخوى الصغير، لكن مفيش فايدة، عمى أصله كبير البلد وأمره نافذ وأنا مهما كنت بعافر مقدرش أخرج عن طوعهم.

نفخت غيظاً يا بهلول:

ـ وزميلك، بلدياتك، الواد الأسمر اللى بيستناكى كل يوم على الناصية.

لما استمر بكاءها إلى حد النحيب، سألتها بصوت خافت:

ـ هو حصل حاجة ـ لا سمح الله ـ بينكم.

وقفت على حيلها، مقطبة حاجبيها:

- أنا غلطانة من أصله انى جيت لحد هنا.

وقفت يا بهلول، أمسكتها من كتفيها صائحاً:

- اقعدى، اقعدى يخرب بيت الصعايدة.

جَلَستْ، زامة شفتيها.

أردفتَ يا بهلول:

- يا ستى أنا عارفه انك بنت جدعة وما تصدرش منك العيبة، أنا قلبى عليكى مش أكتر.

غالبها البكاء مرة أخرى:

- أنا قلت لأمى مش رايداه، وفكرى مع غيره، عملتها مناحة وقالت إن ابويا حيدبحنى ويدبحها لو عرف.

عاودكما الصمت يا بهلول، قمتَ ودرتَ حول نفسك، فركت شعرك، اقتربت من ظهر كرسيها:

- خلاص ماترجعيش البلد، خليكى هنا، هو الجواز بالعافية.

استدارت نحوك شاهقة:

- دا كانوا يقطعونى ويقطعوه.

خفض صوتها:

- رايحة لقدرى برجليا زى الدبيحة اللى بتفرفر، طول عمرى بحلم أكون محامية أدافع عن المظاليم، دلوقت مش قادرة حتى أدافع عن نفسى.

ضممتَ رأسها إلى صدرك يا «بهلول»:

- متعمليش فى روحك كده، أنتِ قاومتى على قد ما تقدرى لكن الريح أعتى منك، ربنا معاكى.

قامت، فتحت سوستة حقيبتها، أخرجت منها كرتونة صغيرة داخلها أقراص «منين» التى تحبها يا بهلول وتسأل عنها فى كل

زيارة تجيء لـ فاطمة من البلد، **وتخصك هى** بالنصيب الأكبر من الأقراص ودوماً تشربها مع **الشاى باستمتاع.**

قلتَ:

- لزومه إيه يا فاطمة؟

- أنا عارفة انك بتحبى «**المنين**».

- شكراً يا حبيبتى.

وضعت الكرتونة على **المنضدة يا** «بهلول» وفجأة خبطت «فاطمة» بيدها على جبينها:

- يا بوى.. شوف قلة **الأصل، نسيت** اسألك عن راجلك، والله لولا الظروف.. كنت..

هززتَ رأسك:

- أنا متأكدة من شعورك، **الحمد لله** هو بخير. المهم ابقى طمنينى على أخبارك.

مشيت فى اتجاه الباب، **حملتْ الحقيبة** الثقيلة، حاولت أن تأخذها منها:

- عنك أنتِ.

- لأ، مش ممكن.

- أوصلك.

- بوى وخوى مستنينى **على راس الشارع.**

شددتَ على يدها:

- خلى بالك من نفسك، **لو احتجت** حاجة انتِ عارفة طريقى.

تعانقتما وظللتَ فترة **واقفاً عند الباب** المفتوح تسأل نفسك أى مجهول ينتظرها وينتظرك **يا بهلول.**

اليوم/ السبت
الساعة/ التاسعة **صباحاً**
شارع الأنهار

عبرت الناصية ـ **يا بهلول** ـ حيث الكبابجى، وبعد أربع عمارات وأمام محل **للعب الأطفال**، كنتَ أمام العمارة رقم ٤ والشقة فى الدور **الأول عليها** يافطة كبيرة بحروف بارزة «البرغوت للتصدير **والاستيراد**».

المدخل رخامى **وباب الشقة** مفتوح على طرقة طويلة مفروشة بسجادة حمراء.

ضغطت على **الجرس، فتح** لك ساع يرتدى بدلة صفراء نظيفة.

مشيت على مهلك **فى الطرقة** الطويلة ـ يا بهلول ـ وجدتَ القرد القصير فى **انتظارك والغليون** على فمه؛ يقف إلى جواره شاب فى نهاية **العشرينيات** يرتدى قميصاً أبيض فضفاضاً وبنطلوناً واسعاً لامعاً وكرافتة **شيك** ومكتب أطرافه مذهبة وعليه العديد من القلامات **والدوايات** والنوت الفخمة وفهرس كبير للتليفونات يتوسط اثنان **من** عدة التليفون، إحداهما حمراء والثانية سوداء ابنوسي؛ **وكرسى** هزاز، يدور بصاحبه الذى يجلس خلفه رجل مسن، أصلع، **كرشه أمامه** ووجهه أحمر منتفخ رغم ملامحه الدقيقة، خِلتَ **أنه المدير** أو البرغوت شخصياً صاحب

المكتب.

أمام المكتب، أربع كراسى فوتيه، ضخمة وسجادة دائرية ومنضدة معدنية.

تنقلتَ ببصركَ فى المكان يا «بهلول»، لم يطلب منكَ أحد الجلوس، ظللت واقفاً، ملاحظاً أن هناك بابين متفرعين من داخل هذه الحجرة، أحدهما مغلق والآخر موارب يظهر منه مكتب عليه آلة كاتبة ونتيجة معلقة على الحائط خلفه.

ـ الآنسة جاية تبع الإعلان.

قال القرد القصير للرجلين اللذين تبادلا فرز جسدك يا بهلول.

قال السمين خلف مكتبه:

ـ تعرفى آلة كاتبة.

صاح القصير:

ـ ردى على الباشا بسرعة.

ـ أيوه يافندم، تحب تجربني

قهقه عالياً، ضحك الرجلان معه.

قال القصير:

ـ مش قلت لك، ييجى منها يا باشا.

عادت الصرامة إلى وجه الرجل الكبير، تحدث إلى الشاب الصامت:

ـ خد الآنسة، فرجها على المكان وشوفها تشرب إيه؟؟

أطرق:

ـ أمرك يا باشا.

مشيت معه يا بهلول وخلفكما القرد القصير، توجه إلى الباب المغلق، فبانت الثلاجة الكبيرة فى مواجهتك مباشرة وفى

العمق تحت الشباك بوتاجاز مسطح وعلى المنضدة أكواب وبراد شاى وترمس كبير.

على الجانب الآخر، سرير خشبى نظيف ومرتب، فوقه بطانية شيك.

فتح الثلاجة قائلاً:

ـ عندك جميع أنواع العصاير، اختاري

تمتمتَ:

ـ شكراً

ناولك القصير علبة بعد أن فتحها سريعاً:

خدي

شاور على السرير مردفاً:

ـ استريحى هنا

نظرت إليه مستاء يا بهلول، تدارك الشاب الموقف:

ـ المكان ده بيستريح فيه عملاء وضيوف الشغل.

ظللت واقفاً مكانك:

ـ شكراً، أنا مستريحة كده.

وضعت الشفاطة فى ثقب العلبة وحرصت أن تشفط العصير دون صوت.

بعد أن أنهى المدير مكالمة تليفونية، جاء صوته من بعيد:

ـ وحياتك يا شاطرة، اعملى اتنين قهوة من ايديكى الحلوين دول.

لم تكمل العصير يا بهلول، خرجت إليه، تاركاً الشاب والقصير يعبثان فى الثلاجة وقفت متسمراً أمامه:

ـ أنا جاية اشتغل سكرتيرة على ما أظن، مش حاجة تانية.

رجع بظهر مقعده:

- أنا عارف، لكن انتى مهمتك تريحينى قبل الآلة الكاتبة.

اقتربتَ من المكتب ووجهك محتقن:

- أنا مش جايه أقدم قهاوى، الشغلة دى ليها ناسها.

صفق، فأتى القصير مهرولاً وخلفه الشاب الذى تعلو ملامحه بلاهة ما.

وضع نظارته على وجهه، ثبتها جيداً:

- واضح انك أول مرة تشتغلى سكرتيرة.

صوب، نظرة صارمة للقصير:

- انت مافهمتهاش أصول الشغل ولا إيه؟؟

قرب القصير من مقعد المدير، انحنى قريباً من أذنه:

- أصلها لسه خام يا باشا، بكره تتودك.

خبط بيده على المكتب:

- أنا محدش يعترض على كلمة بقولها، تروح تعمل القهوة.

شاور لكَ الشاب:

- اتفضلى قدامى.

علا صوتك يا بهلول:

- مش رايحة فى حتة ومش عاملة قهاوى ومش حاشتغل هنا من أصله.

استدرت لتخرج مسرعاً، حاول القصير اللحاق بك، جاءه صوت المدير يمنعه:

- سيبها تغور.

غمغم القصير:

- أصلها مش وش نعمة، باين عليها غاوية فقر.

مشيت على السجادة الطويلة فى الطرقة يا «بهلول»، نزلت السلالم الرخامية، سرت غريباً عن شارع الأنهار، تحوطك

الأشجار والأبراج والسيارات الفارهة غريباً حتى عن نفسك.

أسرعت الخطى، طويلاً بعيداً عن المكان، حتى حاصرتك الشوارع المباغتة، مشيت من تخريمة إلى تخريمة حتى وصلتَ إلى محطة الأتوبيس بعناء.

كان الوقت لم يزل مبكراً، فكرت أن تذهب إلى الجامعة وعلى الحائط وداخل برواز زجاجى، كان جدول الامتحانات معلقاً، أخرجت نوتة صغيرة من حقيبتك ورفعتَ رأسكَ لأعلى تنقل الكلام المسجل على اللوحة.

أطبقت يد على كتفك من الخلف، استدرت فزعاً، التقطَ أنفاسكَ رأيت سعيد بوجهه الطفولى وأنفه المحمر دوماً.

قلت فرحاً:

ـ أهلاً سعيد أنتَ فين؟

ـ أنت اللى فين؟

تنهدتَ يا «بهلول»:

ـ فى الدنيا.

شدكَ من يدك وأنت تحاول إيقافه:

ـ استنى، لما انقل الجدول.

استمر فى شدكَ خارج زمرة الطلاب المحاطة باللوح الزجاجى. أذعنت لرغبته، سحبتَ يدك منه بالعافية، وضعت القلم والنوتة داخل حقيبتك الصغيرة، علقتها فى كتفك ومشيت بجواره:

ـ على فين؟

ـ حاقعد فى قصر.

ضحكتَ وظللت معه حتى تعرف آخرتها، وصلتما إلى الحرم الجامعى قصر الزعفران سابقاً.

ابتسمتَ:

- هو دا القصر.

انحنى مشاوراً إلى الحديقة الواسعة أمامه:

- اتفضلى.

رددت، عاوجاً دماغك:

- وهو كذلك، أما نشوف آخرتها.

جلستما على النجيلة، ضحكتما طويلاً حتى أدمعت من الضحك عيناك يا «بهلول».

فرد جسده مدندناً:

- أول مرة تحب يا قلبى وأول يوم اتهنى.

رددت ساخراً:

- يا بخت الأطرش.

وكأن كلامك ذهب أدراج الرياح، أكمل:

- ياما على نار الحب.. ..

قاطعته:

- كفاية، نتكلم جد شوية

اعتدل فى جلسته:

- يادى النكد.

هممت بالقيامَ، أمسك ذراعك:

- اقعدى، خلاص، أنا آسف يا ستى.

ترك ذراعك وأطرق:

- أصل صاحبك بيحب جديد.

فردت ساقيك مسترخياً يا «بهلول»:

- وهى دى اللى مشقلبة كيانك؟ أعرفها؟

- لأ طبعاً ولا حد من شلتنا يعرفها.

- ومالك بتدوس على كلمة لأ طبعاً، هى تطول تعرفنا.

شرد بعينه بعيداً، قائلاً:

- دى بنت زى النسمة، رقيقة، هادية، بتسمع موسيقى خفيفة وتحب تغنى، وفوق كل ده بتسمع كلامى ولا تكسر لى كلمة، ولا بتوجع قلبى فى نقاش.

عقدتَ حاجبيك يا «بهلول»:

- يعنى عاوز واحدة تقول لها كن فيكون.

نظر إليكَ بعينه الدائرتين:

- مش بالضبط، لكن الطاعة واجبه، عشان ماترجعش تقولى مساواة وكلام فارغ من ده.

أشحتَ وجهك عنه، تأملت الزهور الملونة ورائحتها الفواحة والأشجار الكثيفة حول القصر العتيق، تخيلت نفسك مع أحمد وسط الخضرة والأشجار العالية وأعشاش الطيور وتذكرت حين يأخذك تدفق الكلام وتغلب عليك حمية المناقشة، يحاول إسكاتك بأن يسمعك أبيات شعر للراحل صلاح عبد الصبور:

- «الحب يا حبيبتى لا يعيش إلا مرتين
لحظة البكاء ولحظة الشبق
الحب بالفطانة اختنق.»

- هيه رحتى فين؟

انتبهت لـ «سعيد»، رددتَ:

- حاول برضه تقربها منك ومن دماغك، وتسمعها وتحاورها على قد ما تقدر، وبعدين وجودها فى وسط الناس حيفيدها أكتر.

- يا ستى، أنا عاوزها كده، بلا ثقافة، بلا سياسة أنا عاوز أرجع ألاقيها محضرة ليا الميا السخنة واللقمة.

ـ سى السيد يعنى.

ـ سميها زى ما تسميها، أنا كل اللى أقصده أنى مش عاوز وجع دماغ ومقابل ده، ناوى أريحها وأبسطها.

هززتَ رأسكَ:

ـ انتو أحرار مع بعض، ماترجعش زى عوايدك بعد كده تشكى ويكون فى معلوماتك، إننا ناس جدعان قوى، بنعرف نفهم ونحب ونعيش الحياة.

أحمر وجهه:

ـ انت زعلتى، يا ستى أنا بهرج معاكى، دنا يشرفنى أنها تعرف واحدة زيك، أنتِ وغيرك بنات أجدع من ميت راجل، لكن

ـ لكن إيه؟

ـ من غير زعل؟

هززت رأسك:

ـ من غير زعل

ـ ماتعمروش فى جواز، دايماً حاطين نقركم من نقر الراجل وراسكم براسه. حين لمح عدم استجابتك للكلام يا «بهلول» وتقطيبة جبينك أطرق قائلاً:

ـ أنا آسف، ماقصدش

ـ الساعة كام دلوقت

قلت يا «بهلول» وأنت تشتاق لإنهاء هذا الحوار، وتكمل ما وراءك من أمور:

ـ عاوزاها كام؟

وقفت:

ـ سعيد أنا مش بهزر؟

وقف بدوره:

ـ الساعة داخله على تلاتة الضهر.

ـ ياللا بينا.

ـ مستعجلة

ـ أيوة.

قال وأنتما تتمشيان وسط النجيلة:

ـ نسيت اسألك عن أخبارك وأخبار جوزك المصاب، أنا آسف.

أطرقت يا «بهلول»:

ـ الحمد لله على كل شيء، قَدرٌ ولطف.

اقتربتما من ساحة الكلية، الأعداد الطلابية قلت كثيراً أمام اللوح الزجاجي.

أخرجتَ النوتة والقلم.

استأذن سعيد منك:

ـ أروح أشوف اللى ورايا، البت زى القمر وخبلانى.

ضحِكتَ يا «بهلول» وأنت تسلم عليه بحرارة:

ـ على العموم، مبروك.

ـ الله يبارك فيكِ.

أدار لكَ ظهره ورحل.

عدتَ إلى الجدول المعلق، نقلت باقى الجدول والمواعيد.

حين انتهيتَ، مشيتَ حتى البوابة وهواء الخماسين يهب على وجهك.

الفصل العاشر

على عتبة البيت جاءك صراخها، ذراعها ملوية ورأسها محشورة فى بطن عجوز واللكمات على ظهرها تتوالى مع الآهات.

حاولتَ أن تشد البنت «نجية» وتفلتها من قبضة العجوز، لم تفلح، استدرتَ ناحية ظهرها، أمسكتها من كتفيها، شاداً إياها للخلف.

تملصت «نجية»، جرت مولولة، لتقع مقرفصة فى بئر السلم لاطمة على خديها ورأسها وصوتها ينبعث من أسفل:

- والنبى ما عملت حاجة والختمة الشريفة مانى.

جرت العجوز نحو بئر السلم.

استوقفتها يا «بهلول»:

- استهدى بالله.

التقطَتْ أنفاسها اللاهثة صائحة:

- لازم أربيها وأحط راسها تحت رجليا، بنت الأبالسة.

- تعالى.

مشت معك فى اتجاه غرفتك يا «بهلول»، بينما طارت نجية فى الاتجاه المعاكس للسلم، ووقفت تصرخ وتولول منكفئة على الدرابزين.

ظلت العجوز واقفة على عتبة الباب، لافحة وجهها الأسمر المتعرج بطرحتها السوداء.

أحضرت لها كوب ماء.

تجرعته سريعاً والبعض منه يتسرسب على رقبتها المعروقة وصدرها.

قلتَ لها بعد أن فرغت:

- واقفة عندك ليه؟ أُدخلى.

تلفتت حولها والكوب الفارغ لم يزل فى يدها، نظرت إلى فوق، حين تأكدت أن النوافذ العلوية لصاحبة البيت مغلقة، تقدمت خطوتين إلى الداخل، اقتربت منكَ خافضة صوتها:

- الست زوبة قصدتنى فى عيلة صغيرة، تساعدها فى شغل البيت ومجايب الطلبات، قلت اهديها بنت اخويا ما تعزش على الست زوبة واهى يتيمة والرزق على الله.

انتى عارفة أنى بورد للست زوبة القشطة والزبدة والعسل والسمنة البلدى المعتبرة، حاكم الكل عارف إننا بلديات وواكلين عيش وملح سوا.

والبت «نجية» برضك لهلوبة، بقالها عندها ييجى أربع أو خمس سنين، حاكم هى جايلها عيله مغمضة والست الشهادة لله عمرها ما اشتكت منها.

تقوم تيجى المضروبة فى قلبها «نجية» تعض الإيد اللى اتمدت لها وتسرق.

وضعت الكوب الفارغ على المنضدة، تمخطت بظهر جلبابها، اختنقت الدموع فى عينيها.

أردفت:

- أودى وشى من الست زوبة فين؟ ومن الناس، دا أهل البلد ياكلوا وشنا.

نظرت إليكَ يا «بهلول» بعينين متوسلتين:

ـ تفتكرى الست تسامحها؟؟

وأمام عينيها الدامعتين المتسائلتين، أمسكتها من ذراعها دافعاً إياها أمامك:

ـ نطلع عند أبلة زوبة نشوف الموضوع.

هزت رأسها، سابقة إياكَ على السلم.

كانت نجية واقفة لم تزل تنهنه على السلم، محتضنة الدرابزين بذراعيها، بشرتها شاحبة مبقعة بقع دائرية بيضاء، ساقاها نحيلتان، قدماها الصغيرتان مشققتان، وعيناها بندقيتان صغيرتان تتحركان فى كل اتجاه، معصوبة الرأس دوماً تعقد رأسها بمنديل يغطى جبهتها، لم ترها أبداً فى البيت أو الشارع دون هذا المنديل يا «بهلول» وربما عند النوم أيضاً.

حين رأتك طارت أعلى السلالم، حصلتها، زعقت فيها:

ـ خليك مكانك، ماتتحركيش.

وصلت العجوز بعدك لاهثة، جلست القرفصاء على عتبة باب أبلة «زوبة».

ضغط على الجرس يا «بهلول» وفى يدك البنت «نجية».

فتح ابنها المراهق، نظر إليكما، رد مرتبكاً:

ـ أيوة

ـ ماما موجودة

أطرق، أعاد النظر إلى «نجية» التى انتفضت كمن لدغها عقرب، تركت يدك يا «بهلول»، تراجعت بظهرها حتى التصق بالحائط وهى تتنقل ببصرها بينك وعمتها.

جرى إلى الداخل.

اهتز جسد أبلة «زوبة» تحت قميصها الخفيف أثناء هرولتها لترى من بالباب وحين وقع بصرها على عمة «نجية»، زعقت

فيها:

- أنا مش قلت لك رَوحَى يا وليه، واديتيك اللى فيه النصيب.

قامت على حيلها متثاقلة، قالت العجوز:

- البت يا ست زوبة صغار، الرحمة.

وضعت أبلة زوبة كفها على خصرها منتصبة:

- خدى المحروسة وغورى من قدامى الساعة دى أنا عفاريت الدنيا بتتنطط قصادى.

تراجعت العمة صامتة، اخذت بيد نجية المنكمشة داخل نفسها.

قلت هامساً لهما يا «بهلول»:

- استنونى تحت.

هزت العجوز رأسها بالإيجاب، ونظرتَ أنتَ للشرر المتطاير من عين أبلة زوبة.

قلت مخففاً:

- ونا كمان يا أبلة، مش عاوزه تشوفينى.

خفضت صوتها:

- اتفضلى.

سميت بالرحمن ودخلت يمينك إلى حجرة الصالون، أغلقت البابَ بشدة، استدارت صائحة، مشاورة بيدها:

- من هنا، عندى جوا فى الأوضة.

دولاب كبير يكاد يصل للسقف، أول من رأيته فى مواجهتك داخل حجرة النوم، بجواره تسريحة ذات مرآة بضلفتين وسرير كبير بعمدان نحاسية من الطراز القديم يتوسط الحجرة ومقعد اسفنجى بين الشباك والتسريحة.

فتحت أبلة «زوبة» الدولاب، أخرجت روباً ارتدته على

قميصها الخفيف.

شاورت لك على المقعد أن تقعد، فجلستَ يا «بهلول» على المقعد الاسفنجى صامتاً وفوق السرير جلست هى وتربعت، خبطت بيدها على الفراش.

ـ تعالى هنا جنبى.

غُصتَ داخل كرسيكَ

ـ أنا هنا مستريحة.

عقدت حاجبيها:

ـ تعالى يا بت ماتخافيش، هونا هاعضك.

خفضت صوتها:

ـ اصلى مش عاوزه حد يسمعنا.

أذعنت لطلبها، جلست قربها على الفراش يا «بهلول»، قلتَ:

ـ ليا طلب بسيط عندك يا أبلة، يا ريت ماتكسفنيش.

تنهدت وهى تنظر لصورة ابنها المشبوكة فى الحافة الخشبية للمرآة، قالت:

ـ أنتِ عارفة معزتك عندى.

دققت فى الصورة يا «بهلول»، كانت لابنها البكر المغترب لكنها مختلفة عن الصورة الكبيرة له فى الصالون، يبدو هنا أصغر سناً وأكثر حيوية.

وبعد صمت طال أمام الصورة، نظرت لعينيك السوداوين:

ـ كأنك حته منه.

ربتَ على كتفها:

ـ ربنا يصبرك ويرجعه ليكى بالسلامة.

وجدتَ الفرصة سانحة للدخول فى الموضوع مباشرة يا «بهلول»:

ـ أبلة زوبة، أنا عارفة إن ليا خاطر عندك والنبى تسامحى البت نجية، معلهش دى أول مرة والشيطان شاطر.

رفعت يدها فى وجهي:

ـ أبداً.

جاء صوتها كالطلقة.

ـ بس يا أبلة..

قاطعتك:

ـ قلت لأ، أصلك مش عارفة حاجة، الواد المدهول زى أبوه، اللى فتح لك الباب، دخل على البت المطبخ نص الليل وشلحها وهاتك يا بوس وتقفيش وأبصر إيه.

هزت رأسها مردفة:

ـ قفشتهم من كام يوم، رحت شداه من قفاه لحد أوضته وقفلت عليه، ورجعت للبت وقعدت أضرب فيها لحد ما ايديا خدلت؛ وبعدها قعدت أفكر، الواد صوته خَشن ودقنه نبتت والبت صدرها طرح.

وعديكى فضلت طول الليل صاحية، لحد ما رسيت على آدان الفجر أنى أمشيها واخفى على الخبر ماجور.

قمت من قربها، نفخت غيظاً يا «بهلول»:

ـ تقومى تسرقيها.

مصمصت شفتيها، فردت ذراعها، علا صوتها:

ـ امال يعنى احنا نتفضح، ما تغور مطرح ما جت هى وأهلها، لأ والنبى استنى لما تعلق ـ لى ـ الواد بيها ولا تحبل منه وتقع الفاس فى الراس.

ضاقت عيناها مردفة:

ـ دا صنف نمرود، اسألينى أنا، دايماً يبص لفوق، لكن أنا

قطعت رقبتها من أصله.

تراجعت بظهرك حتى لامست الحائط يا «بهلول»، وجدت نفسك فى حالة اللاجدوى من استمرار الحديث، نظرتَ إلى ساعتك، قلت متعللاً:

ـ عن أذنك يا أبلة ورايا مشوار.

نزلت من فوق السرير النحاسي:

ـ استنى، دانا عاملة شوية ملوخية بالأرانب تاكلى صوابعك وراهم.

ـ ماليش نفس

أدركت بلماحيتها الفطرية استياءَك، غَيَرتْ الموضوع:

ـ إلا قوليلى، أخبار جوزك إيه والنبى لولا الملامة.. ..

قاطعتها:

ـ حسك معانا يا أبلة، عن أذنك.

ـ استنى بس

قالت محاولة استبقاءَك.

مشت خلفك حتى باب الشقة صائحة:

ـ ابقى خلينا نشوفك ولو احتجت لأى حاجة، أنا رقبتى دادة.

أدرت لها رأسك:

ـ يا ريت تكملى جميلك وتعتقى البت، أنتِ عارفة أنها مظلومة.

قطبت جبينها وكأنها لم تسمع شيئاً ردت بلهجة حاسمة:

ـ الموضوع ده انتهينا منه خلاص، مع السلامة.

سَمعتَ انغلاق الباب بشدة خلف ظهرك، نزلت درجات السلم مهزوماً يا «بهلول» وعند مدخل البيت وجدتهما فى

انتظارك، نجية والبقجة فى يدها ومنديلها المعقود على رأسها وعيناها المنتفختين وعمتها المذهولة بجوارها.

اقتربتَ من الصبية، خلعتَ المنديل عن رأسها، سقط شعرها القصير على وجنتيها، كان ناعماً أسود كستائر الليل برائحة الكيروسين.

برقت عيناها البندقيتان فازدادت لمعة الحدقتين.

تمتمت يا «بهلول»:

«سوف تصير جميلة حين تكبر تلك الصبية».

انتبهت لكلام العمة:

- هيه، الست زوبة سامحتها.

أطرقتَ، دون رد.

أردفتَ:

- يعنى خلاص، اتقطع رزقنا، حتى السمنة والزبدة مش عاوزاها من يمتنا.

نظرت إلى نجية بشرر، كورت قبضتها وضربتها فى دماغها صائحة:

- مبسوطة يا وش المصايب.

انفتحت نجية فى البكاء:

- والله مانى.. ..

قلتَ مخففاً عنها يا «بهلول»:

- يا ستى رب هنا، رب هناك، اتكلى على الله.

هدأت العمة:

- ونعمة بالله، عليه توكلنا.

فتشتَ داخل جيوبك، وجدت بعض الفكة، دسستها فى يد نجية قالت العجوز:

- وطى، بوسى ايد الست يا بت

سحبتَ يدكَ سريعاً، قلتَ حانقاً:

- كلنا على باب الله يا ستى، المهم الستر والصحة خلى بالك منها.

هزت العجوز رأسها:

- اهى تبقى تلقط رزقها وتلم الدودة مع اخواتها، لحد ماشوفلها شغلانة عند ناس طيبين، فتاكى بعافية.

استدارت والصبية خلفها، تتلفت بين الحين والآخر، وتشدها العجوز من يدها، إلى أن غابا عن الأنظار ولم يبق غير منديل «نجية» المتسخ الملقى على الأرض.

عرفته عن بعد.

فئرانى الوجه، ذو سنتين بارزتين وعينين قططيتين، لونهما مراوغ بين الأصفر والأخضر.

يميل برأسه حتى يكاد يأكل أذن «أحمد»، حين اقتربتَ توقف عن الكلام، وضع ورقة سريعاً فى جيب بنطاله، نظر أحمد إليك مبتسماً:

- تعرفوا بعض

- طبعاً

قلتَ يا «بهلول»، ثم جلست على حافة السرير.

هذه الملامح صعب أن تغادر الذاكرة، تقابلتما - ذات مرة - فى الشارع قبل ذهاب «أحمد» إلى الجبهة، يومها كنت متأبطاً ذراع «أحمد» وسألت عنه رد، خافضاً صوته:

- دا كادر سياسى.

ولأنكَ كنتَ مشغولاً بالتنزه مع حبيبك فى أجازته القصيرة، نسيت سؤاله عن معنى كلمة «كادر» التى أدركتها فيما بعد.

نظرتَ إلى عينيه المراوغتين، أشاح بوجهه عنك، وقف:

- أشوفكم بعدين.

اعتلت الدهشة وجه «أحمد» الذى بدا لونه الأسمر يعود إلى طبيعته.

سأله:

- والموضوع اللى اتفقنا عليه؟

أشار بحركة عصبية:

- بعدين، بعدين

أمسك أحمد كفه:

- استنى هنا، هو إيه اللى بعدين، فرصة وأنت رايح مشوارك تبلغها.

وكما الأطرش فى الزفة كنتَ يا «بهلول»، أصابك بعض التوتر عن أى موضوع كانا يتحدثان ولمَ يحمل فى طياته كل هذا الغموض؟؟

أشحت بوجهك عنهما، كان سرير النسخة بالكربون فارغاً، لكن أشياءَه كما هى، خمنت أنه ربما يكون فى الكشف أو دورة المياه، استدرتَ إلى السرير المقابل، رأيت الدفعة المذهول قابعاً فى مكانه، نظرتَ إلى النوافذ الزرقاء المفتوحة على أفقٍ غير معلوم.

- رحت فين يا «بهلول»؟

قطع «أحمد» شرودكَ

- مفيش حاجة.

نظر إلى صاحبه قائلاً:

- بعد دقايق، حنروح جلسة علاج طبيعى، أصلهم بياخدونا بالدور.

استدار برأسه نحوي:

- معلهش يا حبيبتى، مش حنقدر نقعد مع بعض، نبقى نعوضها يوم تانى.

نظر إلى صاحبه مرة أخرى مردفاً:

- وكمان فيه موضوع حيكلمك «صبحي» فيه.

حدقتَ فى صبحى هذا يا «بهلول»، بوجهه الفئرانى وجسده الضئيل، رأيته صامتاً، مطاطيء الرأس.

نهضتَ من على حافة الفراش، أمسك أحمد راحتك، شد عليها:

- خلى بالك من نفسك

ضحكتَ:

- المهم أنت، أنا زى القرد.

ابتعد صبحى خطوات، مشيتَ خلفه، نزلتما درجات السلم، وعند البوابة، وقفتما متسائلين، أين تذهبان؟ ولشغفك بمعرفة الموضوع، اخترت أقرب مكان من المستشفى العسكرى.

- فيه جنينة قريبة.

فرك شعر رأسه:

- ماشى، نروح أى مكان.

ومشيتما، هو يسبقك بخطوات سريعة وأنت تحاول اللحاق به. جلستما على أقرب منضدة تطل على بحيرة صغيرة فيها بجع أبيض صغير.

- خير

قلت يا «بهلول» بنفاذ صبر.

عض بسنتيه البارزتين على شفته السفلى وعينيه القططية تقتحمان ترقبك:

ـ الموضوع ببساطة إن القوات المسلحة خصصت لكم وحدة سكنية. و.. .. ..

لم تجعله يكمل، مست الفرحة قلبك، هتفتَ:

ـ مش معقول!!

سعل سعالاً متقطعاً:

ـ وطى صوتك، الموضوع ده مش لازم حد غيرنا يعرفه.

استرسلت يا «بهلول»:

ـ أخيراً، حانستقر، ويكون جوزى وابنى فى حضنى، أخيراً الدنيا حست بينا.

صمتَ للحظات محدقاً فى وجهه:

ـ بتقول محدش يعرف غيرنا، ليه؟؟ هو احنا بنسرق، الناس كلها لازم تشاركنا فرحتنا.

فتح علبة سجائره وبأصابع عصبية أشعل واحدة.

تصاعد حديثه مع دوائر الدخان وأنتَ تحاول بكل كيانك أن تلتقطَ الكلمات التى تنهمر شلالاً من فمه، تحاول قدر الإمكان جمعها وفهمها.

ـ للأسف، احنا محتاجين الشقة لعمل سياسى، فيه رفاق خارجين من السجن ومش لاقيين مكان وبصراحة الشقة مناسبة.

مادت الأرض تحتك يا «بهلول»، بدا وجهه منقسماً أمامك، انطفأت فرحتك الوليدة، ماذا يقصد ومن يحتاج من، والمكان الذى طال انتظارك له حتى تلملم بقاياك المبعثرة فى شوارع القاهرة، مهدد بالضياع منك.

مكانك/ عشك الصغير، ملاذك، تحب، تكتب، ترقص، تصمت، تتعرى، تنام، تلهو مع صغيرك، تتأمله وهو ينمو كالزرعة الخضراء أمام عينيك.

كل ذلك يمكن أن يتسرب من بين يديك فى لحظة؟
كل ذلك يمكن أن يشطب عليه بقرار؟؟
نظر إلى ساعته، دفس عقب السيجارة فى المنضدة.
- يدوب أمشى دلوقت، ادينى بلغتك وخلاص.
صحتَ مغتاظاً:
- بلغتى وخلاص، يعنى إيه؟ هو أنا طوبة؟
- طوبة؟؟
زفرت نفساً خارقاً:
- لعلمك، الكلام الفارغ ده تتساه
قطب حاجبيه
- الزمى حدودك يا زميلة
قهقهت عالياً، جاء الجرسون على أثر ضحكك الهستيرى.
- أيوه يا فندم
استدرت برأسك متهكماً:
- شوف الباشا يشرب إيه؟
أشاح للجرسون بيده:
- شوية كده.
رجع بظهره مندهشاً:
- أمرك يا فندم.
تورم وجه صبحى، برزت سنتاه الأماميتان:
- إيه حكاية «باشا» دى، بتتريقى سيادتك.
نظر إليك من فوقك لتحتك، هز رأسه، قال بنصف ابتسامة:
- أنت أعصابك تعبانة قوى، وعلى كل احنا اخدنا موافقة «أحمد»، وكتب لنا توكيل، يعنى الموضوع خلص تقريباً، احنا بنبلغك مش أكتر.

ضرب الدم فى نافوخك يا «بهلول»:

- يعنى أحمد عارف، وماقليش بنفسه ليه؟ دا مالوش مكان تانى، وابنه ومراته متبعترين، كل واحد فى مكان، مفيش حد يجرؤ يعمل كده فى بنى آدمين محتاجين سقف، أبسط حقوقهم، السياسة عمرها ما كانت ضد الإنسانية وبعدين ما فيه حلول تانية غير تشريد أسرة، واحد منهم لسه راقد على ضهره وبعدين أنا ليا كلام مع أحمد.

وقفت، علقت حقيبتك الصغيرة على كتفك، غير مكترث بالرد عليه.

وقف صائحاً:

- تحبى أوصلك.

أدرت له ظهرك:

- لأ، شكراً.

جريت فى اتجاه باب الخروج من الحديقة والأفكار تتضارب فى رأسك، أتذهب عند أحمد فى المستشفى؟ لا ، لن يجدى ذهابك شيئاً بعد أن كتب لهم التوكيل ، ثم ان انفعالك سوف يغلبك.

أتذهب عند أمك ؟ يا ويلك ، سوف تضع يديها فى خصرها شامتة فيك وما فعلته بنفسك وأنت ليس بحالة تسمح لك أن تسمع ندبها.

وعلى رصيف المحطة وقفت يا «بهلول»، تتلفت حولكَ، متوقعاً ضربة مباغتة لا تدرى من أى اتجاه تأتى.

بملابسك وحذائك ألقيت نفسك على الفراش يا «بهلول»، والنشيج نار لا تهدأ داخل قلبك.

نباح يأتيك من بعيد وعجلات العربات الميرى تشق

الأسفلت.

الأسلاك الشائكة تفصل بينك والنباح وأنتَ وحدك تلملم عريك، محلول الشعر، زائغ العينين فى صحراء موحشة، قد ضللت الطريق، تمر العربات سريعاً، لا أحد يقف لك، النباح يقترب، الريح تعصف بالرمال، كلب أسود يدنو منك، عيناه ذهبيتان، تشعان فى قلب الليل.

تسأل نفسكَ، أين رأيتَ تلك العيون الذهبية؟؟ وينفتح أمامكَ باب موارب، فتخطو بقدمك العارية داخل سرداب، تحاذر الدرجات الخشبية المتعرجة، تستقبلك الجميلة «نفرتاري»، تربت على رأسك مهدئة من روعك، تأخذك من يدك، تنير لك طريق الجدران، تترك يدك، تختفى، يسود الظلام المكان، تتحسس الجدران، يأتيك ضوء شحيح فترى الكلب الأسود، «أنوبيس» نذير الموت، جالساً على مقعد كبير، رافعاً عصاه أمام عدد ضئيل من البشر، يحملون صندوقاً خشبياً.

أنوبيس يستقبل الموتى ونفرتارى غائبة، نباح يأتيك من الصحراء، يستدير «أنوبيس» نحوك، ترجع بظهرك، تتعثر، يختفى الضوء الشحيح وعيناه الذهبيتان تطيران بأجنحة سوداء نحوك، صرختَ، جاءَتك الجميلة نفرتارى، اتجهت نحوها، اختفت، جريت خارج المقبرة والنباح خلفك يعلو، جريت على الرمال، قمتَ، وقعتَ و«أنوبيس» نذير الموت يعدو خلفك.

ها أنت والرمال والظلمة والأسلاك وعريك أمام نذير الموت الذى يقفز عالياً، تصرخ، يلتصق ظهرك بحبيبات الرمال الباردة، تتراءى لك الوجوه مقعرة، أمكَ وأبوكَ و«زوبة» وأحمد والنسخة الكربون ونجية ويحيى وإنصاف و.. .. و.. ..

ضحكاتهم الهستيرية تحاصرك، تتسع حدقتا عينيك، فترى

«أنوبيس» قاضماً على قطعة لحم تقطر دماً، دنا منك، قفز عالياً، رفعت ذراعيك، صرخت، إنها ساق أحمد المفقودة فى الحرب، كيف وصلت إلى أنيابه.

عبرَكَ وظل يعدو سريعاً، تتبعتَ الدم الممزوج برمل الصحراء اختفى أنوبيس قاضماً على الساق وظل نباحه يعلو، غطيت رأسك بالرمال مولولاً والنباح يزداد والطرق الشديد يزداد، استنجدت بالعربات الميرى، جريت خلفها، ما من أحد يقف لك، وقعت على الأرض، ضامماً عريك المقشعر، تقلبت على الأسفلت البارد، النباح يعلو والطرق يزداد وساق «أحمد» التى راحت مع نذير الموت تغرقك دماً.

الطرق يزداد والسخونة المبللة تحتك تتسع، تنتفض من مكانك فزعاً، تشعر بالعطش، تتلفت حولك، تحاول إدراك ما يحدث أنت لا زلت على فراشك يا «بهلول» وقد تركت النافذة مفتوحة، النباح يأتيك من النوافذ ولوح الزجاج تدفعه رياح الخماسين محدثة طرقاً منتظماً، تحسست السخونة المبللة تحتك، أدركت أن الدورة قد أتتك فى غير ميعادها كالعادة.

قمتَ، أغلقت النافذة، وضعت فوطة على كتفك، سخنت بعض الماء الدافئ، نظفت نفسكَ ورجعت غيرت ملاءة السرير، جلست على المقعد أمام المنضدة التى تحتوى كتبك وكراريسك.

تحاول جاهداً البحث عن مفر من الحزن المتراكم داخل صمتك تمسك قلمك/ حريتك الوحيدة، تخط أولى سطورك.

لا مكان/ لا وطن.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٠٣١/٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6663 - 4